الفصل الثانى

المدينة

المدينة قبل الإسلام

المدينة إحدى مدن الحجاز . وهو سلسلة جبال السَّراة الممتدة فى شبه جزيرة العرب من الجنوب إلى الشمال ، وسمى حجازاً لأنه يفصل بين نجد شرقاً وتهامة غرباً ، ويحجز بين اليمن جنوباً والشام شمالا . وأشهر بلاده مكة والمدينة والطائف .

اسمها

وأصل اسمها فى النقوش المعينية ى ث رب . والقراءة الصحيحة لهذا الاسم فى جغرافية بطليموس وغيرها من كتب الأقدمين « يثربا » .

ويقول السمهودى إنه استطاع أن يستدل للمدينة على أربعة وتسعين اسماً . منها أثرب كمسجد[1] . ويقول ياقوت إن لها تسعة وعشرين اسماً [2] .

أما اسم المدينة فأصله باللغة الآرامية « مدينتا » ، ومعناه « دائرة قضاء » ، ويفهم من هذا أنها بلدة على جانب من الاتساع . ويبدو أن اليهود حين كثروا بيثرب فضلوا هذه التسمية الآرامية . فاستبدلوا بيثرب اسم (مدينتا) ، وكانوا إذ ذاك يتكلمون الآرامية .

ويقول الأستاذ فيليب حتى : « أما الاعتقاد بأنها سميت المدينة لصيرورتها مدينة الرسول فهو رأى متأخر »[3] . ويمكن للتوفيق بين الرأيين أن نقول : إن اليهود — وهم يتكلمون الآرامية — قد استبدلوا باسمها القديم (يثرب) الاسم الآرامى (مدينتا)

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٧ وهو من أوسع وأوثق ما كتب عن المدينة. ويسير فيه المؤلف على طريقة رواة الحديث . طبع عدة طبعات أرخصها وأكثرها انتشاراً طبع الآداب والمؤيد بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ فى مجلدين — نور الدين على بن أحمد السمهودى عالم المدينة توفى سنة ٩١١ هـ . وقيل ١٠١١ هـ .

(٢) معجم البلدان ٧/ ٤٢٤ مادة « مدينة يثرب » .

(٣) تاريخ العرب ١/ ١٤٦ .

ولما جاء الإسلام سميت الاسم العربى (المدينة) .

ومما يرجح أن لفظ المدينة تسمية إسلامية أن قيس بن الخطيم وهو جاهلى يلتزم فى شعره تسميتها يثرب ، على حين ترى حسان بن ثابت وكعب بن مالك فى شعرهما الجاهلى يسميانها يثرب . وفى شعرهما الإسلامى يطلقان عليها يثرب تارة والمدينة تارة أخرى ، كأن هؤلاء الشعراء الثلاثة وهم من أهلها لم يكونوا يعرفون لها هذا الاسم (المدينة) قبل الإسلام .

موقعها

ويذكر السمهودى نقلا عن محمد بن الحسن المشهور بابن زبالة[١] أن يثرب أم القرى كانت ما بين طرف قناة إلى طرف الحرف ، ثم يزيد ذلك إيضاحاً فيقول : إنها غربى مشهد سيدنا حمزة ، وشرقى الموضع المعروف بالبركة ، مصرف عين الأزرق ، ينزلها الحاج الشامى فى وروده وصدوره[٢] . ومعنى هذا أن اسم يثرب (أو أثرب أو أثربا فى بعض النصوص) كان أول الأمر يطلق على مكان يقع إلى الشمالى من المدينة الحالية بنحو أربعة أميال ، ولما امتدت البلدة نحو الجنوب إلى موضعها الحالى امتد معها اسم يثرب[٣] .

وإذاً فالمدينة كلها تقع فى سهل يبدأ من تلال أحد شمالا ، ويمتد جنوباً بضعة أميال ، ويرتفع ارتفاعاً تدريجيًّا كلما صار نحو الجنوب ، وأُحُد فرعٌ من جبال السراة المعروفة باسم جبال الحجاز ، ولذلك وصفها ابن خُرْدَاذبة بقوله : « المدينة حجازية نجدية »[٤] يريد بذلك أنها تقوم قرب السفح الجبلى الشرقى الفاصل بين نجد وتهامة . أما السمهودى فيقول : المدينة حجازية بلا إشكال[٥] . ويذكر « لامانس » أنها « عرفت ضمن تخوم الحجاز »[٦] . وعلى نحو ميلين من جنوبيها

---

(١) من أصحاب مالك . وضع مؤلفاً عن المدينة لم يعثر عليه .
(٢) السمهودى : وفاء الوفا ١ / ٨ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ ص ١٢٦ .
(٥) السمهودى : وفاء الوفا ١ / ٩٩ .
(٦) لامانس : مهد الإسلام ١ / ١٥ .

قُباء، وهى شبيهة بالقرية[١]، وإلى الشرق منها بَقيعُ الغَرْقَد، والمدينة بيضية الشكل، فى مقدار نصف مكة؛ وتقع معها على خط طول واحد تقريباً[٢]، وتبعد عنها شمالاً نحو ٢٥٠ ميلاً، ويمر بها طريق القوافل الذاهبة بين اليمن والشام[٣].

أرضها

كانت شمالى بلاد العرب سلسلة من البراكين، تمتد من موقع المدينة إلى حَوْران بالشام، وأثرها الآن يسمى الحَرَّات، وهى طبقة من الحُمم المنثنية المتشققة تكسو التربة الرملية، وتكثر هذه الحرات حول المدينة، وبخاصة فى الناحيتين الشرقية والغربية، والحَرّات الشرقية أكثر بعداً عنها من الحرات الغربية. ولذلك نجد الأرض الخصبة شرقى المدينة أوسع منها فى غربيها.

خصبها:

وتربتها خليط، فهى رملية جيرية غرينية، وهذا الخليط خصب جداً وبخاصة فى الجنوب، مما جعلها واحة حقيقية[٤]، تجود فيها غابات النخيل جودة فائقة، حتى لقد كان بها وفيما حولها مائة صنف من ثمرات النخيل، ذكرها كتاب العرب[٥]، ويزرع بها البرتقال والليمون والرمان والموز والخوخ والمشمش والتين والعنب.

مياهها

والصفة البارزة فى سهل المدينة ثروته المائية التى يندر وجود مثلها فى بلاد العرب، وجميع مجارى الماء تأتى من الجنوب حيث الوادى مرتفع، وتأتى

---

(١) معجم البلدان ٤٢٤/٧. يقول الأستاذ محمد مبروك نافع فى كتابه «تاريخ العرب – عصر ما قبل الإسلام ص ٢٥» إن قباء على ثلاثة أرباع الميل من المدينة جنوباً. فلعله يصفها الآن بعد أن امتد عمران المدينة جنوباً.

(٢) المرجع نفسه ومبروك نافع فى تاريخ العرب ص ٢٥.

(٣) أوليرى: الجزيرة العربية قبل الإسلام ص ١٧٣.

(٤) حتى وزميلاه تاريخ العرب ١٤٦/١.

(٥) المرجع نفسه ترجمة الأستاذ مبروك نافع ص ٢٣.

كذلك من الحرّات لارتفاعها ، ثم تسير نحو الشمال . وفى فصل المطر تنهمر السيول إليها من الجبال والمرتفعات المجاورة ، لأنها فى مطمئن من الأرض ، وتتجمع فى برك بالقرب منها ، وكان هذا السيل المنتظم هو الذى يروى نخيل المدينة ومزارعها ، بعد أن تحتجزه حواجز الحرّة الصخرية أيام الشتاء[1] ، وتفيض به الغُدران ، فيرتفع الماء الجوفى حولها ، وتنشأ عن ذلك عيون وآبار كثيرة . وأعذب مياه تلك الناحية آبار وادى العقيق المشهور جنوبى المدينة ، ومنها بئر عرْوة ، وعندها بَنَى عُرْوة بن الزبير بن العوام قصره المعروف بقصر عروة ، وفيهما يقول عامر بن صالح[2] :

حَبّذا القَصْرُ ذو الطَّهارةِ والبئـ ـرُ ببَطْنِ العَقيقِ ذاتُ الشَّبَاةِ[3]
ماءُ مُزْنٍ لم يَبْغِ عُروةُ فيها غيرَ تقوى الإلهِ فى المُقْطَعَاتِ
بمكانٍ من العقيق أَنيسٍ باردِ الظِّلِّ طَيِّبِ الغَدَوات

ويقول البتنونى : « أهل المدينة يشربون من آبار كثيرة ؛ منها بئر الأعواف ، وبئر أنس بن مالك ، وبئر رُومة التى اشتراها سيدنا عثمان لشرب المسلمين ، وبئر فاطمة ، وبئر عُروة ، وكان أهل المدينة قديماً يهدون من ماء البئرين الأخيرتين للملوك وكبار المسلمين »[4] .

ويبدو أنه كان لبئر عروة منزلة خاصة ؛ فقد جاء فى شعر الأحوص ما يشير إلى هذا ، إذ يقول :

رامَ قلبى السُّلوَّ عن أَسماءِ وتَعزَّى وما به مِن عَزاءِ
سُخنةٌ فى الشتاءِ ، باردةُ الصَّيـ ـفِ ، سِراجٌ فى الليلة الظلماءِ
كَفِّنانى إنْ مِتُّ فى دِرْعِ أَرْوَى واسقيانى مِن بئرِ عُروةَ مائِى[5]

---

(١) لامانس : مهد الإسلام ١/٤٥ .
(٢) معجم البلدان ٧/٤٢٤ وما بعدها .
(٣) الشباة : شباة كل شىء حده وجانبه .
(٤) الرحلة الحجازية ٢٧٥ .
(٥) جاء بالعقد الفريد ١/٣٦ ، ٣٧ (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠) ما يأتى : « قال إبراهيم بن المهدى للمأمون : بينما أنا مع أبيك يوماً يا أمير المؤمنين بطريق مكة إذ تخلفت عن الرفقة =

وأهم مجارى الماء بالمدينة وادى العقيق ووادى بُطْحان جنوباً ، ووادى قناة ووادى مهزور أو محزور فى الغرب[١] .

وإذا سقط مطر غزير تدفق سيل شديد ، قد يكون خطراً على القسم الجنوبى من المدينة ، ومن ذلك ما حدث فى عهد عثمان رضى الله عنه مما اضطره إلى بناء سد يقيها شر الفيضان[٢] .

مناخها

ومن هذا المطر الغزير يتخلف الماء ويتجمع فى برك قريبة منها ، تتحول أحياناً إلى مستنقعات ، تنمو فيها جراثيم بعض الأمراض ، وقد يتسرب الماء الآسن إلى بعض الآبار ، بعد أن تمتصه أرض المرعى ملوثاً حاملا إلى الناس أسباب الحمى . وإلى هذا وذاك يرجعون السبب فى الحميات التى كانت تجتاح المدينة من حين إلى حين ، والتى كانت سبباً فى مرض كثير من أصحاب الرسول عقب الهجرة . وإلى مرضه صلى الله عليه وسلم بعد شربه من ماء بئر زُرَيْق[٣] .

ومن أسبق من ذكروا هذه الأوبئة البَلاذُرى . قال : لما هاجر رسول الله إلى المدينة مرض المسلمون بها ، فكان ممن اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر

= وانفردت وحدى ، وعطشت ، وجعلت أطنب الرفقة ، فأتيت إلى بئر ، فإذا حبشى نائم عندها ، فقلت له : يا نائم . قم فاسقنى . فقال : إن كنت عطشان فانزل واستق لنفسك ، فخطر ببالى صوت ، فنقرت بسوطى على سرجى وترنمت به :

رام قلبى السلو عن أسمـاء ... وتعـزى وما به من عـزاء
سخنة فى الشتاء باردة الصيـ ... ـف سراج فى الليـلة الظلماء
كفتانى إن مت فى درع أروى ... واسقيانى من بئر عروة مائى

فلما سمعنى قام نشيطاً مسروراً ، وقال : والله هذه بئر عروة ، وهذا قبره ، ثم قال : أسقيك على أن تغنينى ؟ قلت : نعم . فلم أزل أغنيه وهو يحبذ الحبل حتى سقانى وأروى دابتى ، ثم قال : أدلك على موضع العسكر على أن تغنينى ؟ قلت : نعم ، فلم يزل يعدو بين يدى وأنا أغنيه حتى أشرفنا على العسكر ، فانصرف » .

وقد أورد الأغانى (١ / ٦٠ طبعة الساسى) هذه القصة مع خلاف يسير ، وأشار إليها كذلك ياقوت فى معجم البلدان ١ / ٦ ، ١٤٠ .

(١) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ١٧ . وفيه « مهزور أو محزور معناه بالعبرية مجرى الماء ، وبطحان معناه الاعتماد .

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ٢٥٩ .

(٣) لامانس : مهد الإسلام ١ / ٣٠ و ٤٢ .

ابن فُهَيرة، فأخبر النبي بذلك فقال: «اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا مكة». ويروى هذا الحديث بصور شتى دون تغيير فى المعنى[١]. والشائع أن الحُمَّيات ما تزال تزور المدينة فى عصرنا، كما كانت تزورها زمن الهجرة، ويكون وقعها على المهاجرين إليها أشد.

والمدينة معروفة باعتدال جوها وطيب هوائها، وتصعد حرارة الجو فيها صيفاً إلى ٢٨° مئوية، وتنخفض فى الشتاء إلى عشر درجات نهاراً. وإلى خمس تحت الصفر ليلا، وكثيراً ما يرى فيها الماء متجمداً بآنيته عند الصباح شتاء[٢]. فجوها حار صيفاً ولكنه قلما يكون خانقاً، وبارد رطب شتاء. ويقول المسائحون المحدثون إن هواءها لطيف لكنه ليس صحيًّا.

ولعل سبب اختلاف الناس فى وصف جو المدينة أنهم ينزلون بجهات مختلفة منها. وفى فصول متفاوتة، وسنين غير متفقة، فمن نزل فى جهاتها المرتفعة أثنى على هوائها، ومن حل فى جهاتها المنخفضة وفى سنة كثيرة السيل وجد الجو رطباً، والماء آجناً، كما وجد المهاجرون الأولون.

نشأتها

لم تكن المدينة أول الأمر فى موضعها اليوم، بل نشأت باسم يثرب إلى الشمال من هذا المكان قرب أحد كما سبق، وكانت يثرب هذه مجموعة من الأكواخ المتناثرة، تحيط بها الحدائق والحقول، ثم اتسعت رقعتها وتحولت محلاتها المتفرقة بالتدريج إلى شبه بلدة متماسكة، وعكف أهلها على الزراعة، فكان جيرانهم من البدو يحترونهم ويسمونهم (نبطيين). ويصفها بروكلمان[٣] بأنها كانت قطعاً مزروعة من الأرض منفصلا بعضها عن بعض، ومنازلها متفرقة بين النخيل والحقول، ولم تكن المدينة مسورة، فكان سكانها يعتمدون فى الدفاع عن أنفسهم على غابات النخيل وحدائق الفاكهة، وهذه كانت فى الجنوب والشرق أكثر منها

---

(١) السمهودى: وفاء الوفا ١/٣٨ – ٣٩. معجم البلدان ٧/٤٢٤ وما بعدها.

(٢) البتنونى: الرحلة الحجازية ص ٢٥٢.

(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ص ١٩.

فى الشمال والغرب ، لذلك كانت هاتان الجهتان أكثر تعرضاً لغارات المعتدين ثم كثرت الآطام ، فكانت بمثابة حصون صغيرة يلجأ إليها السكان عند الخطر .

سكانها الأوائل

ولانعـدام الوثائق عن نشـأة المدينة نسج المؤرخون على — عادتهم — قصة زعموا فيها أن أول من سكن المدينة جُرْهُم والعمالقة[١] . ويقول ياقوت[٢]: « وكان أول من زرع بالمدينة ، واتخذ بها النخل ، وعمر بها الدور والآطام ، واتخذ بها الضياع العماليق . وهم بنو عملاق بن أَرْفَخْشَذ بن سام ابن نوح ، وإلى ذلك يشير حسان بن ثابت — وهو يقص خبر رحيل قومه من اليمن إلى يثرب — بقوله[٣] :

فأَنْبُوا بعادٍ وأَشياعِها ثمودَ وبعضِ بَقايا إرَمْ
بَيْثْرِبَ قد شيَّدوا فى النخيل حُصوناً ، ودَجَّنَ فيها النَّعَمْ

ويرى Lammens أن هذه الآطام بنيت على نسق قصور اليمن ، ويستنبط من ذلك أن اليهود لم يكونوا أول من سكن يثرب[٤] ، ومعنى هذا أن « لامانس » يوافق ياقوتاً ، ويوافق البلاذرى حيث يقول : « كان بيثرب قوم من جُرْهُم ، وبقية من العماليق قد اتخذوا النخل والزرع ، فأقام اليهود معهم وخالطوهم ، فلم يزالوا يكثرون وتقل جُرْهم والعماليق حتى نفوهم عن يثرب ، واستولوا عليها ، وصارت عمارتها ومراعيها لهم[٥] » .

وتعلق دائرة المعارف الإسلامية على هذا بأن القصة خرافية لا أصل لها[٦] .

والذى يبدو أن الصواب فى جانب ياقوت والبلاذرى ولامانس ، إذ تواترت

---

(١) سيديو : تاريخ العرب ص ٢٩ .
(٢) معجم البلدان ١ / ٤٢٤ وما بعدها .
(٣) ديوانه قصيدة ٩ — البيتان ٦ و ٧ .
(٤) مهد الإسلام ص ٧٢ .
(٥) فتوح البلدان ص ٢١ .
(٦) انظر مادة (المدينة) .

آراؤهم ، ووافقت قول حسان السالف ، على حين لم تسند دائرة المعارف الإسلامية ما زعمته بدليل .

اليهود بالمدينة

أما التاريخ الواضح للمدينة فيبدأ من نزول اليهود بها . على أن أول ذلك العهد مختلف فيه كثيراً ، فبعضهم يربطه بخروج بنى إسرائيل من مصر فى نحو سنة ١٢٢٥ ق . م[١] . ويرجعه آخرون إلى طرد اليهود على يد بُخْتَنْصَّر[٢] بين سنتى ٥٨٨ — ٥٨٦ ق . م[٣] . وأقرب الأقوال إلى الصواب وما يكاد يجمع عليه الثقات ، أن نزول اليهود بيثرب كان على أثر تدمير الرومان لبيت المقدس سنة ٧٠ م[٤] .

فهل يكون معنى هذا أن يهود يثرب ليسوا عرباً ، وإنما هم من يهود مصر أو فلسطين . . ؟ يقول الدكتور فيليب حتى : « إذا اعتبرنا الأسماء التى تسمى بها يهود يثرب والألفاظ الآرامية التى كانوا يستعملونها فى حياتهم الزراعية ؛ فإننا نحكم أنهم كانوا فى الأكثر من القبائل العربية والآرامية التى تهودت ، مع أنه ربما كانت نواة هذه الجماعة إسرائيلية صرفة هجرت فلسطين فى القرن الأول للميلاد على أثر الفتح الرومانى »[٥] .

ويقول (أو. ليرى O. Leary) فى الكلام عن يهود المدينة[٦] : « ونستطيع أن نستنتج أن بنى قينقاع كانت من عرب الشمال أو الأيدوميين ، أما قريظة والنَّضير فكانتا من اليهود الذين نزلوا بلاد العرب بعد تخريب معبدهم سنة ٧٠ ق.م ، أو بعد فتك هارديان بيهود يهوذا سنة ١٣٢ ق . م . والأساطير التى وردت عن نزول الآراميين فى بلاد العرب قد تدل على آثار هجرة عرب الشمال أو الأيدوميين إلى

---

(١) حتى : تاريخ العرب ١/٤٨ — أحمد بدوى : موكب الشمس ٢/٨٢٨ . وأما قول البتنونى فى الرحلة الحجازية ص ٢٥٢ و ٢٥٣ إنه كان سنة ١٦٠٠ ق . م فبالغ فيه .

(٢) بختنصر تعريب نبوخذنصر ملك بابل .

(٣) دريوتون : مصر ٦٤٨ .

(٤) حتى : تاريخ العرب ١/١٤٦ — أو. ليرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ١٧٣ .

(٥) حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ١٤٦ .

(٦) أو . ليرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ص ١٧٣ — ١٧٤ .

يثرب قبل هجرة يهود فلسطين » .

ويزعم اليعقوبى[١] أن قريظة والنضير متهودة من جذام، وبهذا يأخذ نُولْدكه. أما الأغانى فيعدهم يهوداً خلّصاً .

ومما له دلالة أن قريظة والنضير كانتا تسميان الكاهنين . نسبة إلى الكاهن ابن هارون بن عمران ، وهذا دليل على علمهم بنسبهم . ويؤيد ذلك أن صَفية — وأبوها من بنى نَضير وأمها من بنى قريظة — كانت توصف عند زواجها من الرسول بأنها من آل هرون[٢] .

ويقول الأستاذ Buhl فى مادة « المدينة » فى دائرة المعارف الإسلامية : « القول الفصل فى ذلك هو الطريقة التى يخاطب بها النبى (هكذا) يهود المدينة فى السُّور المدنية ، إذ هو فى هذه السور يخاطبهم على أنهم بنو إسرائيل . ويذكرهم أن الله فضلهم على العالمين[٣] . فهو يضعهم فى إطار واحد مع الإسرائيليين الأقدمين ، كأنهم شاركوا فى خروج بنى إسرائيل من مصر[٤] ، ويقول إن الله أعطى موسى الكتاب لإرشادهم[٥] ؛ وأنهم نقضوا العهد . ومثل هذه العبارات توحى بأوضح ما يستطيع الإيحاء أنه عدهم سلالة صريحة من الإسرائيليين الأقدمين . وإذاً فلا مناص من أنه إلى جانب المتهودة كان يوجد يهود من بنى إسرائيل ، إذ لولا اليهود لما وجد متهودة » .

ويقول الدكتور « وُلْفنْسون » : « المعول فى نسبتهم على الأخلاق والتقاليد واتجاه الأفكار والأعمال ، وهذه تثبت أن يهود يثرب أقرب إلى العنصر اليهودى منهم إلى العنصر العربى ، نظراً لما وصفهم به القرآن الكريم »[٦] .

على أنه ينبغى ألا يغيب عن البال أن المدينة لم تكن وحدها مهبط أولئك اليهود ، فقد كان لهم مستعمرات يهودية بالجزيرة العربية فى القرون الأولى للمسيحية ،

---

(١) تاريخ اليعقوبى ص ٤٩ — ٥٢ .
(٢) الطبقات الكبرى ٨/٨٦ .
(٣) يقصد الآيات ٣٩ و ٤٧ و ١١٦ من سورة البقرة .
(٤) يقصد آية ٤٨ من السورة .
(٥) يقصد آية ٥٢ من السورة .
(٦) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٦ .

فى تيماء وَفَدك وَخيْبر ووادى القرى والحِجْر وَمقْنَا ، وكلها ينتشر فى شمالى المدينة ومن حولها ،وكانت المدينة أكبرها وأعظمها[١] .

ولسائل أن يسأل . إذا كانت الأحوال القاسية التى أحاطت باليهود فى بلادهم هى التى اضطرتهم إلى الهجرة عنها ، فاالأسباب التى جعلتهم يولون وجوههم شطر الجزيرة العربية ..؟ والجواب . إنه لا شىء أحب إلى قلوب الذين تركوا بلادهم هرباً من العسف والطغيان من العيش فى بلاد ترفرف فوقها أعلام الحرية ؛ فقصدوا شبه الجزيرة يلتمسون الحياة البدوية الحرة ، على حين تحول رمالها الشاسعة بين جند الرومان أعدائهم وبين التوغل فيها . وربما مال بهم إليها أيضاً أن فيها بنى عمومتهم من ولد إسماعيل عليه السلام ، وأن بلادهم قد ضاقت بهم بعد أن زاد عددهم زيادة مطردة ؛ فأصبحوا فيها أكثر من أربعة ملايين[٢] .

وقد اختاروا المدينة وما كان حولها وفى شماليها من المستعمرات التى ذكرناها ؛ لأنهم كانوا فى ديارهم الأولى أهل زراعة[٣] ، وكانت المدينة وما حولها مشهورة بالخصب ، تكثر فيها المزارع والحدائق الزاهرة[٤] ، ولأن العرب كانوا قليلين بهذه الجهات ، هذا إلى قرب المنازل التى نزلوا فيها من الوطن الذى هاجروا منه . وهناك فضلا عما سبق عامل آخر عظيم الأهمية ، هو أن اليهود عشاق مال طلاب ثراء ، وهذه البلاد التى اختاروها وطناً لهم فى شمالى الحجاز تقع على طرق القوافل التى تتردد بين الشمال والجنوب أو هى قريبة منها ، وقد كان لهم فى هذا المجال نشاط كبير[٥] .

تأثر اليهود بالبيئة

وقد تأثر اليهود بالبيئة التى نزلوها وعملوا على مسايرتها ، حيث اختلطت بهم بطون كثيرة من العرب ، وأثرت فى أخلاقهم وعاداتهم تأثيراً ظاهراً[٦] ، فانقسموا قبائل

---

(١) أو . ليرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ص ١٧٣ .
(٢) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٩ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠ .
(٤) المرجع السابق ص ١٤ .
(٥) هذا الكتاب ص ٩٠ .
(٦) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٤ .

وأسراً ، وهو تقسيم عربى صميم ، وصارت أسماء أفرادهم وقبائلهم عربية ، وقل أن تجد فيهم اسماً يهودياً كالسموءل وسارة ، وجاءت أشعارهم مماثلة لأشعار البدو من العرب كل المماثلة ، وكأنما خاف الدكتور وُلفنسون — الذى لا يخفى تحيزه لليهود — أن يفهم أحد من ذلك أن عقلية اليهود أيضاً قد أصبحت عقلية عربية أو بدوية ، فقال :«إن عقلية اليهود بقيت ممتازة امتيازاً ظاهراً [١] » .

أثر اليهود بالمدينة

عنى اليهود فى مستعمراتهم عامة بالزراعة أول الأمر [٢] ، ثم أخذ الاهتمام بالزراعة يتحول إلى اتجاه اقتصادى ؛ أثر فى العنصر اليهودى كله من القرن الرابع وما تلاه [٣] .

وكان أهم قبائل اليهود بيثرب « بنو قَيْنُقاع ، وبنو قُرَيظة ، وبنو النَّضير » ولبنى قَيْنُاع السبق فى النزول بها ، كما يدل على ذلك سوقهم الهامة فى الجانب الغربى منها ، وتلاهم بنو قريظة وبنو النضير اللذان صار لهما المكان الأول ، وكان مقام قريظة فى وادى مهزور [٤] ، ومقام النضير فى بُطْحان .

التجارة

وكانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة ، ويمكن أن يقال إن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم فى شمالى الحجاز [٥] ، وقد أصبحت تجارة المدينة بأيديهم ، فكانوا يرسلون القوافل التجارية بينها وبين مكة ، وكانت تجارتهم رابحة مزدهرة [٦] .

الصناعة

وكان لبنى قَيْنُقاع شهرة خاصة بالصناعة ، فهم الذين اتجهوا إليها ، ومهروا فى

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٦ .
(٢) حتى : تاريخ العرب ١/١٤٦ .
(٣) أو . ليرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ص ١٧٤ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦ .
(٥) ولفنسون : تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ص ١٨ .
(٦) سيديو : تاريخ العرب ٢٩ .

الصياغة وصنع الجواهر والسلاح والدروع وسائر الآلات الحديدية ، وكان لهم حى خاص[١] . ويؤكد السمهودى أنه كان بالمدينة ثلثمائة صائغ من اليهود[٢] .

ذكروا أن النابغة الذبيانى أقبل يريد سوق بنى قينقاع ، فلحقه الربيع بن أبى الحُقَيْق نازلا من أُطُمه ، فلما أشرفا على السوق — وكانت سوقاً عظيمة — سمعا الضجة ، فحاصت بالنابغة ناقته ، فأنشأ يقول :

كادَتْ تُهَالُ من الأصوات راحِلتى ... ...[٣]

فلابد أنها كانت سوقاً عامرة بالصناعة والآلات والصناع ، على نحو قريب مما نشاهد فى هذه الأيام بالأحياء الصناعية .

الثروة والعمران

وكان فى حى بنى قَيْنُقاع دور عالية من ثلاث طبقات ومن أربع ، وكانت لهم أموال وعبيد[٤] ، وكان لابد لهؤلاء الذين اقتنوا الضياع وملكوا الأموال والعبيد أن يحصّنوا أنفسهم وأموالهم من غارات أعدائهم .

الحصون والآطام

فأقاموا الحصون والآطام على قمم الجبال لرد الأعراب الذين قد يغيرون عليهم ، وصد قبائل أخرى من اليهود قد تغزوهم . فقبائل اليهود كانت تنيف على العشرين ، وآطام اليهود ومن نزل معهم من العرب تزيد على السبعين[٥] ، وكانوا يرون أنفسهم محاربين ممتازين ، ويغلون فى هذا الادعاء .

روى أن بنى قَيْنُقاع حين دعاهم الرسول إلى الإسلام بعد غزوة بدر كان جوابهم : « يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم

---

(١) أو . ليرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ص ١٧٤ — هيوارث : تاريخ العرب ١٣٢/١ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ٧/١ .

(٣) الأغانى ٦٢٢/١ — والقصة بقية نوردها عند الكلام على الشعر بين اليهود . حاصت : حادت أو نفرت .

(٤) هيوارث : تاريخ العرب ١٣٣/١ .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا . طبع بولاق . ص ٨٠ .

بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس »[١] .

كما أن موقف بنى قريظة و بنى النضير يوم بعاث[٢] ، حين أثخنوا فى إخوتهم بنى قَيْنُقاع ومزقوا شملهم لانضمامهم إلى الخزرج ، يدل على ما فى هؤلاء اليهود من قسوة وغلظة ومن رغبة فى القتال والنضال[٣] .

الحياة العقلية

ولا شك فى أن اليهـود وهم أهل كتـاب كان لهم نشاطهم الفكرى والأدبى ، كما كان لهم نشاطهم المادى والاقتصادى . وقد تقدم أن أشعارهم كانت مماثلة لأشعار البدو القح كل المماثلة ، وكان من شعرائهم الجاهليين السموءل ابن عاديا ، وأبو الزناد ، وسارة القُرَظية ، ولهؤلاء وغيرهم شعر جيد ، أورد ابن سلام كثيراً منه[٤] .

يثرب فى ذلك العهد

و بعد فهذه يثرب قد بلغت درجة عالية فى الرعى والزراعة ، وصارت أخصب بلاد العرب ، تجود بها أنواع كثيرة من التمر ، ويكثر بها الشعير والقمح ، وتختلف فيها ألوان الفاكهة . وتروج فيها التجارة ، بفضل جد أهلها وخبرتهم ، و بفضل وقوعها على المحجة التجارية بين اليمن — حيث تتجمع سلع الهند والصين وشرقى أفريقية — و بين الشام ومصر وما يرتبط بهما من أقاليم الدولة الرومية ، ثم هى كذلك على اتصال دائم بعمان والبحرين والأحساء والعراق وفارس ، كل ذلك على طرق معبدة تجلب لها خيرات أهم بلاد العالم ، وتنقل ما يفيض من خيراتها إلى تلك الأقاليم ، يستوى فى ذلك ما تخرجه الأرض وما تصنعه اليد ، مما برع فيه أهلها من نسيج الثياب والتمر المجفف والمعادن المصنوعة .

وظهرت آثار هذه الثروة فى كثرة الذهب بالمدينة ، حتى لنجد فى يثرب

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٥٠ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٣/١٧٢ .

(٢) من أيام الأوس والخزرج فى الجاهلية .

(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ص ٦٩ .

(٤) طبقات الشعراء ص ١٠٩ وما بعدها .

ثلثمائة صائغ . فماذا كانوا يصوغون . ولمن كانوا يصنعون ؟ . ثم نرى سوق بنى قينقاع فى الجنوب الغربى من المدينة على مثل ما رأى النابغة الذبيانى ، مما هال ناقته من أصوات البائعين والمشترين ، وضجيج العمال وطرق الصناع .

بهذه الثروة وهذه الكفاية الفائقة عاش أهل المدينة فى رغد ورفاهية ، واستمتعوا بمزايا الحضارة الزاهية . ونعموا بمسارح اللهو ومجالس الغناء .

وهؤلاء بنو قينقاع ، حاصرهم الرسول خمس عشرة ليلة ، فإذا فيهم أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع ، فأخذ آلة صياغتهم وسلاحاً لهم كثيراً[١] .

وأولئك بنو النضير ، غدروا بالرسول ، فحرّق عليهم نخيلهم ، وأجلاهم عن المدينة ، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحَلْقة[٢] . فاستقلوا بالنساء والأبناء والأموال ، معهم الدفوف والمزامير ، والقيان يعزفن خلفهم ، بزُهاء[٣] وفخر ما رئى مثله من حى من الناس فى زمانهم[٤] ، وغنم الأنصار ما لم يستطيعوا حمله معهم من متاعهم ، وفيه خمسون درعاً ، وأربعون وثلثمائة سيف[٥] .

وكفى بهذا دليلا على ما فى هؤلاء من صلف ومكابرة . فإذا كانوا لم يستطيعوا الكف عن الزهاء واللهو بالدفوف والمزامير وعزف القيان وهم مطرّدون مشردون ، فكيف بهم مقيمين آمنين . . !

الأوس والخزرج

بينما بقى اليهود غالبين فى خيبر وفدك وغيرهما تغير الحال فى المدينة بقدوم قوم من عرب اليمن هاجروا إليها عند انهيار سد مأرب[٦] ، هم بنو قَيْلة[٧] الذين نزلوا

---

(١) الحاسر : من لا درع له ، والدارع صاحب الدرع — ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٥٢ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٢/١٧٣ .

(٢) الحلقة : السلاح ، أو هى الدروع خاصة .

(٣) الزهاء : العجب والكبر .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٢٠١ .

(٥) الواقدى : المغازى ١٦٤ .

(٦) مأرب : مدينة سبأ باليمن ، أقيم عندها سد عظيم لحزن المياه وتنظيم الرى .

(٧) قيلة : هى زوج حارثة بن عمرو بن عامر ، وأم الأوس والخزرج وهى من قضاعة — معجم البلدان ٧/٣٥٤ .

يثرب ، فأقاموا خارجها ، وبقوا ردحاً من الدهر تحت سيطرة اليهود ، حتى عفوا[١] وكثروا وعزوا ، فدخلوها وأجلوا اليهود عنها ، فنزلوا بظاهرها [٢] .

فما شأن بنى قيلة هؤلاء . . وفى أى زمان نزلوا المدينة . . وكيف غلبوا عليها ؟

أصلهم

كان يسكن اليمن عند خراب سد مأرب قوم من الأزد من بنى كهلان ، هم سادة اليمن ، وكان عمرو بن عامر[٣] كبيرهم وسيدهم ، وكان لأولاده من الحدائق والزروع ما لم يكن لأحد من ولد قحطان ، فارتحلوا هرباً من السيل ، ولما فصلوا باعد الله بين أسفارهم وتفرقوا فى البلدان ، فعطف ثعلبة بن عمرو بن عامر نحو الحجاز ، فأقام ما بين الثعلبية وذى قار — وباسمه سميت الثعلبية — مع أهله ومن تبعه ، يتتبعون مواقع الغيث ، فلما كبر ولده وقوى ركنه ساروا نحو المدينة وبها قوم من بنى إسرائيل ، وأقاموا حولها إلى أن وجدوا عزة وقوة ، فأجلوا اليهود عنها ، وابتنوا فيها الآطام ، وغرسوا النخيل ، وهؤلاء هم الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة المذكور . وسار جَفْنة بن عمرو بن عامر ومن معه إلى الشام ، فنزلوا هناك على ماء يسمى غسان فعرفوا به[٤] ، وأصابوا هناك عزاً ومنعة ، وصارت لهم السيادة على عرب بادية الشام ، وهؤلاء هم الغسانيون أبناء جفنة ، وأبناء عمومة الأوس والخزرج .

تاريخ نزوحهم عن اليمن

وليس لدينا وثيقة بتاريخ نزوحهم عن اليمن ، وإن كانت دائرة المعارف

---

(١) عفّوا : تجمعوا . عفَوا : زادوا وكثروا .

(٢) معجم البلدان ٧/٣٥٤ — ٣٥٨ — ابن الأثير : الكامل ١/٤٠٢ — فتوح البلدان ٢١ — الأغانى ١٣/١٨ ساسى — فخر الدين : تاريخ العرب القدامى ص ٢٥٠ — جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٢٥٠ — جمهرة أشعار العرب ص ٢٤٧ و ٢٥٨ — المفضليات ص ١٣٥ .

(٣) هو عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن ابن الأزد بن الغوث .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة « غسان » .

الإسلامية تقول : — « يمكن تحديد هذا التاريخ على وجه التقريب فى القرن الخامس للميلاد »[١] .

وقد تصدع سد مأرب غير مرة ، قيل إن بعضها حدث سنة ٤٥٠ م ، وسنة ٥٤٢، ٥٤٣ . وإن التصدع الذى يشير إليه القرآن حدث بين سنة ٥٤٢ و ٥٧٠ م.[٢]

وللمحققين من المؤرخين فى هذه المسألة آراء لا تختلف اختلافاً كبيراً . فسيديو Sedillot يقول : « إن الأوس والخزرج ملكوا المدينة سنة ٤٩٢ م »[٣] . وأو. ليرى O. Leary يقول : « إن الأساطير تذكر أنهم من عرب اليمن الذين نزحوا إلى هذا الموطن حوالى سنة ٣٠٠ م »[٤] .

ويذكر هيوارث Huart أن أول أمير من الغسانيين هو أبو شمر الحارث ابن عمرو وكان فى سنة ٥٢٨ م[٥] .

ويقرر نولدكه Noldeke بناء على أوثق المصادر أن أول أمير غسانى أبو شمر جبلة كان حوالى سنة ٥٠٠ م[٦] .

ولما كان اليمنيون الذين نزلوا المدينة والذين نزلوا الشام قد خرجوا من بلادهم معاً ، ثم مضى على كل منهم نحو ثلاثة أجيال أو أربعة حتى ملكوا البلاد التى استقروا فيها ، فمن المرجح إذاً بناء على الآراء السابقة أنهم قد رحلوا عن اليمن حول أول القرن الخامس الميلادى . وهو رأى قد يتفق مع ما جاء بدائرة المعارف الإسلامية ، ولا يختلف كثيراً عن تاريخ انهيار سد مأرب ، على ما فى هذا التاريخ من بعض الشك .

نزل بنو قَيْلة حول المدينة فى ضنك وضيق ، يرعون إبلهم وأنعامهم ، وكانت المدينة تعج بأسباب الغنى والحضارة والعمران ، على ما سلف ذكره ، وكلما ازداد اليهود توسعاً فى ميدان الزراعة ازداد اليمنيون ضيقاً بهم وكراهة لهم ، لأن هذا التوسع إنما كان يتم باقتطاع بعض الأرض التى يتخذونها مرعى لهم ، ولذلك كان هؤلاء العرب

---

(١) مادة « خزرج » .
(٢) حتى : تاريخ العرب ١/٧٧ .
(٣) تاريخ العرب ص ٢٩ .
(٤) تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام — ١٧٤ .
(٥) تاريخ العرب ١/٥٩ .
(٦) نولدكه : أمراء غسان ص ٥٧ .

يرحبون باليهود صناعاً ، ويضيقون بهم زراعاً ، لأن الزراعة تقتضى حيازتهم الأرض التى كانت مطلب العرب للمراعى[١] .

وكان هؤلاء اليمنيون خاضعين لسيطرة اليهود ، يؤدون لهم الخراج ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

نُؤدِّى الخَرْجَ بعدَ خَراجِ كسرى وخَرْجِ بنى قُرَيظَةَ والنَّضيرِ[٢]

وكان القسم الشمالى من بلاد العرب — والمدينة منه — وهو عامر بالمستعمرات اليهودية موالياً للفرس على عادة اليهود فى موالاتهم ، وكان على المدينة وعلى تهامة عامل من قبل مَرْزُبان البادية يجبى خراجها[٣] ، وجاء ذلك موافقاً لما كان عليه عرب اليمن الوافدون على المدينة من ولاء وخضوع للفرس فى تلك الأيام[٤] . أما عرب مكة وما إليها فكانوا موالين للروم ، وهذا يؤكد معنى المنافسة التى كانت قائمة بين عرب المدينة وعرب مكة[٥] .

استيلاؤهم على المدينة

ويقول بعض المؤرخين إن بنى قيلة غلبوا على المدينة ، لأنه كان عليها ملك يهودى يقال له الفِطْيَوْن[٦] ، وكان جباراً قوياً ، أساء السيرة فيهم واستباح نساءهم ، حتى امتدت عينه إلى امرأة من الخزرج ، فقتله أخوها مالك بن العجلان الخزرجى ، وكان سيداً عظيما ، ثم مضى يستنجد بقومه فى الشام واليمن ، فاستجابوا له .

ويذكرون أن تُبَّان أسعد أبا كرب نهض من اليمن فى جيش لحرب اليهود بالمدينة ، فأوقع بهم ، « وأن الأوس والخزرج كانوا يمدونه بالزاد ، ويقدمون لجيشه القِرَى ليلا »[٧] .

---

(١) أو . ليرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ١٧٤ .

(٢) الإصطخرى : مسالك الممالك ص ١٢٨ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) مبروك نافع : تاريخ العرب ٩١ .

(٥) أو . ليرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ١٧٤ .

(٦) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٥٦ — ٦٣ يرسم الاسم هكذا « القيطون » .

(٧) دائرة المعارف الإسلامية مادة « أبرهة » .

السمهودى : وفاء الوفا . طبعة وستنفلد . تعليق وستنفلد ص ٨٣ .

أما الغسانيون فيذكرون أن واحداً من سادتهم هو أبو جُبَيْلة الغسانى قد أقبل من الشام فى جمع كثير حتى قدم المدينة مظهراً أنه يريد اليمن ، ونزل بذى حُرُض قريباً من أحد ، وأرسل إلى الأوس والخزرج أنه على المكر باليهود ، ثم دعا وجوه اليهود وأشرافهم أن يحضروا طعامه ، حتى إذا اجتمعوا أعمل فيهم الذبح والتقتيل ، فصارت الأوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة ، وقمعوا اليهود ، وانصرف أبو جبيلة راجعاً إلى الشام ، وقد ذلل المدينة والحجاز للأوس والخزرج[1] . وقد أثار هذا الحادث لوناً من المقاولة بين اليهود والخزرج ؛ فقال الرُّمَّق بن زيد الخزرجى يمدح أبا جبيلة الغسانى[2] .

لَمْ يقْضَ دَيْنَكَ مِلْحِسا نِ وقد غَنِيتَ وقد غَنِينـــا
الراشقـــاتُ المُرْشِقـــا تُ الجازياتُ بما جُزِينـــا
أَشباهُ غِزلانِ الصَّرَا ئم يَأْتَزِرْنَ ويَرْتدينا
وأَبو جُبَيْلةَ خَيرُ مَن يَمشِي وأَوْفاهُمْ يَمينـــا
وأَبَرُّهمُ بِرًّا وأَعْـــ لمُهمْ بفَضْلِ الصالحينا
أَبْقَتْ لنا الأَيامُ والـ حربُ المُهِمَّةُ يَعْتَرِينـــا
كَبْشاً له زَرٌّ يَفُـ لُّ مُتُونَهَ الذَّكَرَ السَّنِينا

ولعنت اليهود مالك بن العجلان فى كنائسهم ومعابدهم ، فبلغه ذلك ، فقال :

تَحَايا اليهود بتَلْعَانِها تَحَايا الحمير بأَبْوالهـــا
وماذا عَلَىَّ بأَنْ يَغْضَبوا وتَأْتى المنايا بإذلالها

وقالت سارة القُرظية ترثى من قتل من قومها :

---

(١) معجم البلدان ٧/٤٢٤ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الصرائم : جمع صريمة وهى القطعة من معظم الرمل . الكبش : السيد رئيس القوم وقائدهم . الزر : الطعن . يفل : يكسر . متونه : جمع متن وهو هنا الضرب الشديد . الذكر : أيبس الحديد وأجوده السنين : المسنون .

بأهلي رِمّةٌ لم تُغْنِ شيئاً بذى حُرُضٍ تُعَفِّيها الرياحُ
كُهولٌ من قُرَيْظةَ أَتْلَفَتْهم سيوفُ الخَزْرجيةِ والرماحُ
ولو أَذِنوا بأَمرِهُمُ لَحالَتْ هنالكَ دونَهمْ حربٌ رَدَاحُ[1]

وقول سارة : « ولو أذنوا بأمرهم » يفيد أن قومها قتلوا ختلا وغدراً على ما روت القصة . ولكن بعض المؤرخين يرى أن قصة غزو اليمنيين أو الغسانيين للمدينة لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً[3] . ومهما يكن من أمر فإن بنى قيلة كانوا ذوى مقدرة حربية تفوق اليهود[4] ، وكانوا يعرفون ذلك من أنفسهم ، وهذا هو البراء بن معرور الخزرجي يأخذ بيد رسول الله فى بيعة العقبة الثانية ، ويقول له : والذى بعثك بالحق نبيًّا لتمنعنك مما تمنع منه أزُرَنا ، فبايعنا يا رسول الله، فنحن أبناء الحروب ، وأهل الحَلْقة، ورثناها كابراً عن كابر[5] . وسواء أكانوا قد استولوا على المدينة بمساعدة أقربائهم أم بأنفسهم ، فإنهم على كل حال قد غلبوا اليهود على أمرهم ، وأنزلوهم منزلة الغرباء المستضعفين الخاضعين لهم[6] .

وها هوذا حسان بن ثابت الخزرجي يروى قصة قومه فى قدومهم إلى المدينة وما صنعوا بأصحابها فاستمع إليه إذ يقول[7] :

فساروا إليهم بِأَثْقالهمْ على كل فَحْلٍ هِجَانٍ قَطِمْ
جيادُ الخيول بأَجْنابهمْ وقد جَللوها ثِخانَ الأَدَمْ
فلما أَناخُوا بِجَنْبَىْ صِرارٍ وشَدّوا السُّروجَ بِلَىِّ الحُزُم

---

(١) حرب رداح : ثقيلة عظيمة .
(٢) معجم البلدان ٧/ ٤٢٤ وما بعدها .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة «خزرج» . ويرى ولفنسون أن القصة مبتدعة لإخفاء غدر مالك باليهود ، وتبرير استعانته بالغسانيين لإهلاكهم إن صح قدوم أبى جبيلة إلى يثرب . تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ص ٥٦ — ٦٣ .
(٤) و . ليرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ١٧٤ .
(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/ ٨٤ . والحلقة . السلاح .
(٦) أو . ليرى : الجزيرة العربية فى الإسلام ١٧٤ .
(٧) ديوان حسان طبع ليدن قصيدة ٩ .

فما راعهم غيرُ مَعْجِ الخيو ... لِ ، والزَّحفُ من خَلفِهم قد دَهِم
فطاروا شِلالاً وقد أُفْزِعوا ... وطِرْنا إليهم كأُسْدِ الأَجَم
. . . .
فأُبْنا بسادتهم والنسـ ... ـاءِ قَسْرًا ، وأموالهُم تُقْتَسم
وَرِثْنا مساكنَهمْ بعدَهُمْ ... وكُنَّا ملوكاً بها لم نَرِمْ[1]

فأنت ترى أن حسان يرجع الفضل كله فى هزيمة أهل المدينة إلى قومه بنى قيلة الزاحفين من الجنوب ، لا إلى غيرهم من أقاربهم .

انحطاط شأن اليهود بالمدينة

ولا شك بعد هذا فى أن مقدرة اليهود الاقتصادية قد انحطت من أثر هذا الغزو ، ومن ذلك التاريخ أصبح اليهود يعيشون متفرقين بين الأوس والخزرج ، بعد أن ثبتت أقدام هؤلاء فى هذه البقعة ، ولم يعد أحد من اليهود يملك شيئاً من الأرض بالمدينة ، اللهم إلا بنى قريظة والنضير ، وكانتا تقيمان بين الأوس .

ويرى الدكتور إسرائيل ولفنسون أن اليهود قد ظلوا حتى الهجرة محتفظين بمكانتهم بين القبائل العربية ، وأن الأوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حساباً كبيراً . وكانت كل منهما تجتهد فى أن تميلهم إليها ، ليساعدوها فى كفاحها ضد أختها[2] .

على أن هذا لا يستلزم أن يكون لليهود شأن خطير ، لأن الإنسان فى الملمات قد يستعين بمن هو دونه لينتفع بجهده ، ويتقى شره ومكره . وهذا هو أوْ. ليرى يرى أن اليهود قد ضعف شأنهم حتى وصلوا قبل الهجرة إلى حالة يرثى لها ، مع أنهم كانوا لا يزالون فى ثراء وعدد كبير[3] .

قضى الأمر إذاً وأصبح الأوس والخزرج سادة المدينة وما حولها ، فعرفوا الحرف النبطية ، وبدءوا يغرسون النخل ويمتهنون الزراعة ، وصاروا زراعاً تقيم كل جماعة

---

(١) هجان : كريم . قطم : شهوان هائج . ثخان الأدم : الجلود الثخينة . صرار : ماء قرب المدينة وقيل : جبل . معج الخيول : سرعتها فى مجيئها وذهابها . شلالا : متفرقين مفزعين . لم نرم : لم نتحول .

(٢) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٨ .

(٣) ص ١٧٤ وما بعدها .

منهم فى بقعة مسوّرة[١] ، واقتنوا الأموال والضياع والقصور ، وأضافوا إلى الحصون التى ورثوها عن اليهود حصوناً جديدة ، فصار بالمدينة وأرباضها منها الشىء الكثير ، وكانت الحصون والآطام من الظواهر المميزة ليثرب ، تلك المدينة التى كانت تبعث فى نفوس أهلها طمأنينة لم تعهد فى غيرها من مدن بلاد العرب[٢] .

مكانة الخزرج

وكانت الخزرج أعظم قبائل المدينة قاطبة وأقواها ، « وكانت العرب إنما يسمون ذلك الحى من الأنصار بالخزرج ، خزرجها وأوسها[٣] » ، ولهذا تولت الزعامة ، وأقامت فى وسط البلدة حيث تقوم المدينة الحالية ، وكان أشهر بطونها بنى النجار[٤] ، رهط حسان بن ثابت ، ونزلت قبائل الأوس إلى الجنوب والشرق ؛ وكان النَّبِيت منهم فى الشمال الشرقى .

وكان بالمدينة إلى جانب بنى قيلة واليهود قبائل عربية أخرى ، كان بعضها ممن نزل بالمدينة قبل اليهود ، وقد تهوّد منهم من تهوّد .

وقد تقدم أن حياة البادية طبعت العرب على الأنفة والنجدة والشجاعة والكرم ونصرة العشيرة ، وأن الجدب قد دعاهم إلى الاقتتال على موارد المياه ومنابت الكلأ ، والإغارة على الأحياء والقوافل ، حتى أصبحت حروبهم جزءاً من حياتهم ، وموضعاً لتباهيهم ، وفخراً يتغنون به . لكن خصب المدينة ، واستقرار الحياة فيها ، قد هيأ لبنى قيلة أن يحيوا حياة تلائم طبعهم .

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية — الترجمة الإنجليزية ص ١٩ .

(٢) دائرة المعارف الإنجليزية مادة « خزرج » .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٨٤ .

(٤) يشير إلى هذا أن الذين شهدوا العقبة الأولى من بنى النجار ثلاثة ومن الأوس اثنان ، ولم يكن لبطن من الخزرج مثل هذا العدد ، والذين شهدوا العقبة الثانية من بنى النجار أحد عشر رجلا ومعهم امرأة . وهذا العدد أكثر ممن شهدها من الأوس قاطبة . ابن هشام السيرة ٢/١٠٠ س ١ ، ص ١٠١ س ٥ و ص ١٠٩ س ١٧ . كما أن بطون الخزرج لم يكن لأحد منها مثل هذا العدد إلا بنى سلمة . ابن هشام : السيرة النبوية ٢/١٠٣ وما بعدها . وكان من فضل بنى النجار الذى يعدونه على قومهم أن كان رسول الله نقيبهم بعد موت أسعد بن زرارة . ابن هشام السيرة النبوية ٢/١٥٤ .

فقد كانوا فى أرض اليمن يتفيئون فى ظلال النعيم ، ويعيشون فى زروع ومقام كريم، وينعمون بحياة رخية ، ويسكنون الدور العامرة ، فألفوا المجالس السامرة، واقتنوا القيان ، وأحبوا الغناء ، ونزعوا إلى الغزل ، وانتقل ذلك معهم إلى المدينة .

قالت السيدة عائشة : كانت جارية من الأنصار فى حجرى ، فزففتها ، فدخل رسول الله ولم يسمع غناء ، فقال : أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ . قلت : نعم . قال : فبعثتم معها من يغنى ؟ قلت : لم نفعل ، فقال : يا عائشة . أوما علمتم أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ! ألا بعثتم مع الفتاة من يقول :

أتيناكم أتيناكم[1] . . . .

وإذا كان خصب المدينة واستقرار الحياة فيها قد قضى على كثير من أسباب التطاحن والقتال، فإنها لم تعدم سبباً هامًّا من أسباب الحرب، هو الدفاع عن العزة والكرامة ، والسعى إلى الرياسة والزعامة .

التنافس بين الأوس والخزرج

ساد الأمن المدينة حقبة غير طويلة ، ولم يكد القوم يتفيئون فى ظلال النعيم والعيش الرغيد حتى أخذ الاضطراب يشيع فيها شيئاً فشيئاً، بظهور الشقاق بين ولدَىْ قَيْلة، كما كان يحدث كثيراً بين القبائل العربية ذات النسب القريب ، وبدأ النزاع بمعارك بين بعض الأسر ، ثم أخذ لهيبها يمتد حتى هدد المدينة بحروب ملحة ، عرفت بحروب الأوس والخزرج ، وكان لابد لهذه الحروب من حركة أدبية قوية تسايرها ، وتدفع إليها ، وتوقد جذوتها ، وتسجل آثارها ، وتحمد خلائق المحاربين ، وتذكر فضل القبيلة ، وتمجد مفاخرها، وتبكى قتلاها، وتهجو أعداءها ، وتذكر مثالبهم ، وتثبط عزائمهم ، وتهون من شأنهم . وقديماً سايرت نهضة الشعر المعارك والحروب ، فنظمت القصائد الحماسية ، ووضعت الملاحم ، وكثيراً ما كان الشعراء أنفسهم فرساناً يطعنون باللسان وبالسنان .

وكانت حروب الأوس والخزرج من أشهر حروب الجاهلية ، وقد خاض

---

(١) القنوجى : أبجد العلوم ٢١٠ . وتمام المقطوعة :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحنطة السمرا . لم نحلل بواديكم

غمارها بعض فحول الشعراء من العرب واليهود ، فسجلوا صورها ، ووعى التاريخ ذكرها .

أيامهم

ومن هذه الأيام أيام سُمَيْر ، السرارة ، الرَّبيع ، البَقِيع ، كعب ، فارع مُعَبَّس ومُضَرَّس ، حاطب ، بُعاث .

سُمَيْر

وكان أول نزاع ذى شأن يوم سمير ، ويغلب أنه وقع حول أول القرن السادس الميلادى[١] ، ذلك أن سُمَير بن زيد الأوسى قتل حليفاً لمالك بن العجلان الخزرجى اسمه كعب الثعلبى ، فأرسل مالك إلى بنى عمرو بن عوف قوم سمير ، أن يسلموا إليه سميرًا ليقتله بكعب ، فأبوا وقالوا : إن صاحبك حليف ، وليس لكم فيه إلا نصف الدية ، وأبى مالك ، فدعوه أن يحكم بينه وبينهم عمرو بن امرئ القيس الخزرجى[٢] ، فقضى على مالك بدية الحليف ، فغضب مالك ، وآذن بنى عمرو بن عوف بالحرب ، واستنصر قبائل الخزرج ، فأبى بنو الحارث بن الخزرج قوم عمرو بن امرئ القيس نصرته ، غضباً لصاحبهم حين رد قضاءه ، فقال مالك يذكر خذلان بنى الحارث له ، وحدب بنى عمرو بن عوف على سمير ، ويحرض بنى النجار على نصره :

إن سُمَيرًا أَرَى عَشيرتَهُ ... قد حَدِبوا دونَه وقد أَنِفُوا
إن يكنْ الظَّنُّ صادق ببنى الـ ... ـجّارِ لا يَطْعَموا الذى عُلِفُوا[٣]
لا يُسْلِمونا لمعشرٍ أَبدًا ... ما دام منا بِبَطْنها شَمَرَفُ[٤]
لكنْ مَوَالِىَّ قد بدا لَهُمُ ... رَأْىٌ سوى ما لَدَىَّ أَو ضَعُفُوا

---

(١) يقول سيديو فى تاريخ العرب ص ٢٩ إن حروب الأوس والخزرج حدثت فى السنوات ٤٩٧ ، ٥٢٠ ، ٥٨٣ ، ٦١٥ م .
(٢) جد عبد الله بن رواحة الأنصارى .
(٣) أى لا يقبلوا الضيم .
(٤) شرف : شريف .

وقال دِرْهَمُ بن زيد أخو سُمَير فى ذلك :

يا قوم لا تقتلوا سُمَيْرًا فإن ال ... قتلَ فيه البَوارُ والأَسَفُ
إنْ تقتلوه تَرِنُّ نِسْوَتُكُمْ ... على كريم ويَفْزَعُ السَّلَفُ[1]
إنى لَعَمْرُ الذى يَحُجُّ له النا ... سُ ومِن دونِ بيتِه سَرِفُ[2]
لا نَرْفَعُ العبدَ فوقَ سُنَّتِهِ ... ما دام منا ببَطْنِها شَرَفُ

وتحاشد الحيان ، وزحف مالك بمن معه من الخزرج ، وزحفت الأوس ومعها حلفاؤها من قريظة والنضير ، واقتتلوا قتالا شديداً قرب قباء ، وانصرفوا منتصفين ، ثم التقوا عند أُطُم بنى قينقاع حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر للأوس ، فقال شاعرهم أبو قيس بن الأسلت :

لقد رأَيتُ بنى عمرٍو فما وَهَنوا ... عندَ اللقاءِ وما هَمُّوا بتكذيب
أَلاَ فِدًى لهم أُمِّى وما وَلَدَتْ ... غداة يمشون إرْقالَ المَصاعيبِ[3]
بكلِّ سَلْهَبَةٍ كالأَيْم ماضيةٍ ... وكلِّ أَبيضَ ماضى الحدِّ مَخْشُوبِ[4]

ولبث الاوس والخزرج يتعاودون القتال فى أمر سُمَير عشرين سنة . ولما رأت الأوس طول الشر دعت مالكاً أن يحكم بينه وبينهم المنذر بن حرام[5] الخزرجى ، جد حسان بن ثابت ، فأجابهم إلى ذلك ، فقضى بأن يودى حليف مالك دية الصريح ، ثم تعود السُّنة بعده إلى ما كانت عليه ، وأن يحمل قومه بنو النجار نصف دية جار مالك[6] معونة لإخوتهم ، وتحمل الأوس نصفها الآخر ، وأن تحصى قتلى الفريقين فى حروبهم ، ثم يكون بعض ببعض ، ويأخذ الدية من

---

(١) ترن نسوتكم : يرفعن أصواتهن بالعويل .
(٢) سرف : موضع قريب من مكة .
(٣) الإرقال : الإسراع فى السير .
(٤) السلهبة : الطويلة الجسيمة من الخيل . الأيم : الحية . المخشوب : المصقول .
(٥) ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٤٠٣ .
(٦) الأغانى ٣/٤٢ .

كان له منهما فضل فى القتلى ، فرضى الفريقان . وإلى هذه الحكومة يشير حسان ابن ثابت بقوله :

وأَبِى فى سُمَيْحَةَ القاتلُ الفا صلُ يومَ التقتْ عليه الخصوم[١]

وبقوله فى قصيدة أخرى :

وجَدِّى خطيبُ الناسِ يومَ سُمَيْحةٍ وعمّى ابنُ هندٍ مُطْعِمُ الطيرِ خالدُ[٢]

فانظر إلى هذه الحرب كيف ظل صداها فى نفوس القوم ينتقل من سلف إلى خلف ، حتى استثار بعد نحو مائة عام من شبوبها فى نفس شاعرين لم يشهداها حماسة فجرت فيها ينابيع الشعر .

فهذا هو قيس بن الخطيم الأوسى يذكرها فيقول[٣] :

ردَّ الخَلِيطُ الجِمالَ فانصرفوا ماذا عليهم لو أَنهمْ وَقَفوا[٤]
فيهم لَعُوبُ العِشاءِ ، آنسةُ الدَّ لِّ ، عَروبٌ ، يسوءُها الخُلُفُ[٥]
بينَ شُكُولِ النساءِ ، خِلقتُها قصْدٌ ، فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَفُ[٦]
أَبلغْ بنى جَحْجَبَى وإخوتَهمْ زيدًا ، بأَنَّا وراءهم أُنُفُ[٧]
إنا وإنْ قلَّ نصرُنا لهُمُ أَكبادُنا من ورائِهم تَجِفُ[٨]
لمَّا بَدتْ نحوَنا جباهُهُمُ حَنَّتْ إلينا الأَرحامُ والصُّحُفُ[٩]

فيرد عليه حسان بن ثابت الخزرجى[١٠] :

---

(١) سميحة بئر بالمدينة وعندها احتكموا إلى جده . قصيدة رقم ٥ من ديوانه طبع ليدن سنة ١٩١٠ .
(٢) قصيدة رقم ٧ ديوانه طبع ليدن سنة ١٩١٠ .
(٣) ديوان قيس ص ١٦ طبع ليبزج سنة ١٩١٤ .
(٤) أى ردوا جمالهم من المرعى ليرتحلوا .
(٥) لعوب العشاء : تلهو وتسمر مع السمار . عروب : حسناء متحببة إلى زوجها .
(٦) شكول : أنواع . قصد : معتدلة . جبلة : جسيمة غليظة . قضف : قليلة اللحم .
(٧) بنو جحجبى بطن من الأوس ، أنف : ذوو حمية لا يرضون الضيم .
(٨) تجف : تضطرب .
(٩) الصحف : العهود .
(١٠) قصيدة رقم ٢١٦ ديوانه طبع ليدن سنة ١٩١٠ .

مابالُ عينِي دموعُها تَكِفُ ... مِن ذِكْرِ خَوْدٍ شَطَّتْ بها قَذَفُ [١]
بانتْ بها غَرْبَةٌ تَوُمّ بهـا ... أَرضاً سوانا ، فالشَّكلُ مختلفُ
ما كنتُ أَدرى بِوَشْكِ بَيْنِهمُ ... حتى رأَيتُ الحُدُوجَ قد عَزَفُوا [٢]
دَعْ ذا ، وعَدِّ القريضَ فى نَفَرٍ ... يَرْجونَ مَدْحِى ، ومِدْحتى شَرَفُ
إنْ تَدْعُ قومى للمجد تَلقهُمُ ... أَهلَ فَعالٍ يبدو إذا وُصِفوا
إنَّ سُمَيْرًا عبدٌ طغى سَفَهاً ... أَجدادُه أَعْبُدٌ لهم نَطَفُ [٣]
بالكاهِنَيْنِ الذِين جَدُّهُمُ ... عبدُ العصا واللئامُ إنْ أَسِفُوا [٤]

السَّرارة

أما يوم السرارة [٥] ، فكان من أمره أن رجلا من بنى الحارث الخزرجى قتل رجلا أوسيًّا من بنى عمرو بن عوف ، فعدت الأوس على من قتله ، فلما رأى الخزرج مقتل صاحبهم خرجوا وخرجت الأوس ، فالتقوا بالسرارة ، وعلى الأوس حُضَيْر ابن سِماك ، وعلى الخزرج عبد الله بن أبىّ بن سلول ، فاقتتلوا قتالا شديداً أربعة أيام ، ولما حمى الوطيس فر عبد الله بن أبى ، وانتهى القتال بانسحاب الأوس إلى دورها . فقال قيس بن الخطيم [٦] :

تَرُوحُ من الحسناء أَم أَنت مُغْتَدِى ... وكيف انطلاقُ عاشقٍ لم يُزَوَّدِ
تَراءَت لنا يومَ الرحيل بُمُقْلَتَىْ ... غَرِيرٍ بِمُلْتَفٍّ من السِّدْرِ مُفْرَدِ [٧]
كأَن الثريَّا فوق ثُغرة نَحْرِها ... تَوَقُّدُ فى الظلماء أَىَّ تَوَقُّدِ

---

(١) تكف : تنهمر . الخود : الناعمة . قذف : بعيدة .
(٢) الحدوج : مراكب النساء فوق الإبل .
(٣) النطف : القرط .
(٤) الكاهنين : قريظة والنضير .
(٥) السرارة : وسط الوادى .
(٦) ديوانه طبع ليبزج سنة ١٩١٤ صفحة ٢٠ .
(٧) غرير : يريد ظبياً غريراً : والغرة قلة التجربة . السدر : شجر النبق .

أَرى كثرةَ المعروفِ يورثِ أَهلَهُ وسَوَّدَ عَصْرُ السُّوءِ غيرَ المُسَوَّدِ
إذا المرءُ لم يُفْضِلْ ولم يَلْقَ نَجْـدَهً مع القومِ ، فليَقْعُدْ بِصُغْرٍ ويَبْعَدِ[1]

ولم يتعرض فيها لفخر أو هجاء ، وإنما أكثر من الحكم وعرض القيم الأخلاقية ، فانبرى له حسان بن ثابت مفتخراً فى قصيدة[2] :

لَعَمْرُ أَبيكِ الخيرِ يا شَعْثُ ما نبا علىَّ لسانى فى الخُطوب ولا يَدى
لسانى وسيفى صارمان كلاهما ويَبْلغُ ما لا يَبْلغُ السيفُ مِذْوَدِى[3]
وإنْ أَكُ ذا مالٍ كثيرٍ أَجُدْ بِهِ وإنْ يُعْتَصَرْ عُودِى على الجَهْدِ يُحْمَد
. . . . . .
ولا تَعْجَلَنْ يا قيسُ وارْبَعْ فإنما قُصَاراكَ أَن تُلْقَى بكل مُهَنَّدِ[4]
حسامٍ وأَرماحٍ بأَيدى أَعزَّةٍ متى تَرَهُمْ يابنَ الخَطِيم تَبَلَّدِ
فقد ذاقت الأَوْسُ القتالَ وطُرِّدَتْ وأَنت لدَى الكُنَّاتِ كلَّ مُطَرَّدِ[5]

وقال أيضاً[6] :

فِدًى لبنى النجار أَمى وخالتى غداةَ لَقُوهُمْ بالمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
فوالله لا أَنسى حياتى بلاءَهم غداةَ رَمَوْا عَمْرًا بقاصِمَةِ الظَّهْرِ

الربيع

ثم كانت حرب ربيع . بين بنى ظفر من الأوس وبين بنى مالك بن النجار من الخزرج . عدا رَبيعٌ الظفرى على أحد بنى النجار فقتله ، فتجمع الحيان ، والتقوا بالبقيع ، وحصنوا الذرارى فى الآطام ، واقتتلوا قتالا شديداً ، لم يكن بينهم

---

(١) يفضل : يكن ذا فضل . الصغر : الذل . يبعد : يهلك أو يبتعد .
(٢) الديوان رقم ٢ طبع ليدن .
(٣) المذود : ما يذود به يقصد لسانه .
(٤) اربع : قف وانتظر وتحبس .
(٥) الكنات : جمع كنة . وهى المخدع ، أو جناح يخرج من حائط ، أو سقيفة فوق باب الدار .
(٦) ابن الأثير : الكامل ١/٤٠٥ .

أشد منه ، حتى كادوا يتفانون . فلما بلغ ذلك منهم كف بعضهم عن بعض، على ما هم عليه من العداوة والحرب ، وقد رجحت موازين الأوس[١] ، فقال حسان ابن ثابت النجارى فى ذلك[٢] :

لقد هاج نفسَكَ أَشْجانُها ... وعاوَدَها اليومَ أَدْيانُها[٣]
تذكرتُ ليلى وأَنَّى بهـا ... إذا قُطِّعَتْ منكَ أَقْرانُها[٤]
. . . . . .
ويثربُ تَعْلَمُ أَنَّا بهـا ... إذا الْتَبَسَ الأَمرُ ميزانُها
ويثربُ تَعْلَمُ أَنَّا بهـا ... إذا قَحَطَ القَطْرُ نُوآنُهـا[٥]
ويثربُ تعلم أَنَّا بهـا ... إذا خافتْ الأَوْسَ جيرانُها
ويثرب تعلم أن النَّبِيـ ... ـت عندَ الهَزاهِز ذُلَّانُها[٦]

فأجابه قيس بن الخطيم من قصيدة[٧] :

أَجَدَّ بعَمْرَةَ غُنْيانُها ... فتَهْجُرَ أم شأْنُنا شَانُها[٨]
. . . . . .
وعَمْرَةُ من سَرَواتِ النسا ... ءِ تَنْفَحُ بالمسكِ أَرْدانُها[٩]
ونحن الفوارسُ يومَ الرَّبيـ ... ـعِ ، قد علموا كيف فِرسانها
جَنَبْنا الحِرابَ وراءَ الصَّريـ ... ـخِ حتى تَقَصَّفَ مُرَّانُهـا[١٠]
. . . . . .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ١/٤٠٨ – ٤٠٩ .
(٢) ديوانه رقم ١١٦ ما عدا البيتين الأولين فإنهما فى الأغانى جـ ٣ ص ١٢ طبعة دار الكتب .
(٣) الأديان : جمع دين وهو الدأب والعادة . يريد حبه القديم .
(٤) الأقران : جمع قرن وهو الحبل .
(٥) نوآنها : جمع نوء وهو النجم يميل للغروب فيستدل منه على المطر .
(٦) النبيت : حى من الأوس ومنه قيس بن الخطيم .
(٧) ديوانه ص ٧ .
(٨) جد : استمر . غنيانها : استغناؤها .
(٩) سروات : شريفات .
(١٠) جنبنا الحراب : جعلناها بجانبنا . المران : الرماح الصلبة اللدنة .

رَدْنا الكتيبةَ مَفْلُولةً بها أَفْنُها وبها ذَانُها[١]

. . . . . .

ويثربُ تَعْلم أَنَّ النَّبِيـ تَ راسٍ بيثربَ ميزانُها

كعب

وكانت حرب كعب ، سميت باسم كعب بن عمرو المازنى الخزرجى ، تربص به رهط من بنى جَحْجَبَىَ من الأوس ، فضربوه حتى قتلوه أو كادوا ، وبلغ ذلك أخاه عاصما فخرج ، وخرج معه بنو النجار ، فالتقوا وبنى جحجبى بالرُّحَابة[٢] ، واقتتلوا قتالا شديداً ، هزمت فيه الأوس ، وكان معهم أُحَيْحَة بن الجُلَاح الأوسى الشاعر ، فرماه عاصم بسهم وهو يدخل حصنه ، فوقع فى باب الحصن ، وطلب عاصم أُحيحة ليلا ليقتله فى داره ، فلما بلغ ذلك أُحيحة قال :

نُبِّئْتُ أَنكَ جئتَ تَسْـ ـرِى بين دارى والقُبَابَه[٣]

فلقد وجدتَ بجانب الضَّحْـ ـيانِ شُبَّاناً مُهابَه[٤]

فتيانُ حربٍ فى الحديـ ـد وشَامِرينَ كأُسْدِ غابه

همْ نَكَّبوكَ عن الطريـ ـقِ فبِتَّ تَركبُ كلَّ لابَه[٥]

أَعُصَيْمُ لا تَجْزع فإن الـ ـحربَ ليست بالدُّعابَه

فأَنا الذى صَبَّحْتُكمْ بالقوم إِذْ دخلوا الرُّحَابَه

وقتلتُ كعباً قبلَهـا وعَلَوْتُ بالسيفِ الذُّؤابه

وبلغ عاصما قوله فقال :

أَبلغْ أُحَيْحَـةَ إن عَرَضْـ ـتَ بدارِه عنِّى جوابَه

---

(١) الأفن : ضعف الرأى . الذان : العيب .

(٢) الرحابة : حصن بالمدينة .

(٣) القبابة : حصن بالمدينة .

(٤) الضحيان : حصن لأحيحة بأرض القبابة .

(٥) اللابة : الحرة وهى الأرض تغطيها طبقة من الحمم

وأنا الذى أَعْجَلْتُـــهُ عن مَقْعَدٍ أُلْهى كلابَه
وَرَمَيْتُـــهُ سهماً فأَخ طأَه ، وأَغلَقَ ثَمَّ بابَه

فارع

وكانت بينهم حرب فارع نسبة إلى فارع أطم حسان بن ثابت[١] .

مُعَبِّس ومُضَرِّس :

ثم كان يوم معبس ومضرس[٢] وهما جداران ، فكانت الخزرج وراء مضرس وكانت الأوس وراء معبس ، فأقاموا أياماً يقتتلون قتالا شديداً ، حتى انهزمت الأوس ودخلت البيوت والآطام ، وكانت هزيمة قبيحة لم ينهزموا مثلها ، ولم ينته الأوس ، فألح عليهم الخزرج بالغارات والأذى ، حتى عزمت الأوس إلا قليلا منهم على الانتقال من المدينة. وجرح سعد بن مُعَاذ الأشْهَلى الأوسىّ جراحة بالغة فى مال لبنى عبد الأشهل ، يقال له الرعل ، فاحتملوه إلى عمرو بن الجموح الخزرجى ، فأجاره وأجار الرعل من الحريق وقطع الأشجار .

وفى يوم معبّس ومضّرس يقول حسان بن ثابت [٣] :

أَلاَ أَبْلِغْ أَبا قيس رسولًا إذا أَلْقَى لها سمعاً تُبِينُ[٤]
فلستُ لِحاصِنٍ إنْ لم تَزُرْكُمْ خِلالَ الدارِ مَشْعَلَةٌ طَحُونُ[٥]
. . . . . .
تَجُود بأَنْفُس الأَبطالِ سُجْحاً وأَنتَ بنفسكَ الخِبُّ الضَّنِينُ[٦]
فلا وَقْرٌ بسمعكَ حينَ تُدْعَى ضُحًى ، إذ لا تُجِيبُ ولا تُعِينُ

---

(١) ابن الأثير : الكامل ١/٤٠٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ١/٤١٢ .
(٣) ديوان حسان ١١٧ .
(٤) رسولا : رسالة .
(٥) الحاصن : العفيفة . مشعلة طحون : حرب مهلكة .
(٦) سجحاً : جمع أسجح وهو الحسن المعتدل . الخب : الخداع .

أَلَمْ نَتْرُكْ مآتِمَ مُعْوِلاتٍ لهنَّ على سَرَاتِكُمُ رَنِينُ

أما قيس بن الخطيم فيسجل قصة هذه الحرب ، وهزيمة الأوس ، وإخراج النبيت من ديارهم[١] ، وما عزموه من ترك المدينة ، والتماسهم حلف قريش ، ويذكر أبرهة اليمن ، ونعمان الحيرة ، وعمراً الغسانى ، وما ينتظرونه عندهم من تكرمة فى قصيدة منها[٢] :

أَلَمَّ خِيالُ لِيلى أُمِّ عَمْرٍو ولم يُلْمِمْ بنا إلا لِأَمْـرِ
تقول ظَعينَتِي لما اسْتَقَلَّتْ أَتَتْرُكُ ما جَمَعْتَ صَرِيمَ سَحْرِ[٣]
فقلتُ لها ذَرِينى إنَّ مـالِى يَروحُ إذا غَلبتُهُمُ ويَسْرِى
فلَسْتُ لحاصِنٍ إنْ لم تَرَوْنا نُجَالِدُكم كأَنا شَرْبُ خَمْرِ[٤]
وتَحْمِلُ حربَهم عنـا قريشٌ كأَنَّ بَنانَهُمْ تَفْرِيكُ بُسْرِ[٥]
ونُدْرِكُ فى الخَزَارجِ كلَّ وِتْرٍ بِذَمِّ الكاهنَيْنِ وذمِّ عَمْرِو[٦]

فرد عليه عبد الله بن رَوَاحة يقول[٧] :

كذبتَ لقد أَقَمتَ بها ذليلًا تُقيمُ على الهَوانِ بها وتَسْرِى

بُعاث

ورأت الأوس أن لا مناص لهم من حلف يشد أزرهم ، فساروا إلى مكة يطلبون حلف قريش على الخزرج ، وكادوا يبرمونه لولا أن أبا جهل خاف العاقبة ، فأفسد عليهم أمر الحلف . ولم ير الأوس إلا محالفة قريظة والنضير ، فاستجاب لهم هؤلاء ،

---

(١) النبيت : حى من الأوس منهم قيس بن الخطيم .
(٢) ديوان قيس ص ٣٢ .
(٣) صريم سحر : أى بائساً .
(٤) أى لا ينتسب لأم عفيفة . الشرب : جماعة الشاربين .
(٥) تفريك بسر : حمراء من الدماء .
(٦) الكاهنين : هما قريظة والنضير .
(٧) ديوانه ص ٣٤ . الشايب : تاريخ النقائض ص ٧٨ .

وعقدوا مع الأوس الخناصر على الحرب ، إلا فئة من بنى قريظة برياسة الربيع ابن أبى الحُقيق ، انضمت إلى بنى قينقاع وحالفوا الخزرج[١] . وأصبح النزاع عامًّا يشمل اليهود والأوس والخزرج وغيرهم من سكان المدينة ، وبعض البدو القريبين منها ، وكان أبو قيس بن الأسلت الأوسى على رأس أوس الله .

والتقوا ببُعاث[٢] قبل الهجرة بثلاث سنوات[٣] ، وانتهى الأمر بهزيمة الخزرج ، وتبعهم الأوس يحرقون عليهم نخلهم ودورهم ، وتولى قريظة والنضير سلبهم[٤] . وقال خُفَاف بن نُدْبَة الأوسى يرثى قائدهم حُضَيْرْ الكتائب[٥] :

أَتانى حديثٌ فكَذَّبتُـــهُ ... وقِيل خَليلُكَ فى المَرْمَسِ[٦]

فيا عَيْنُ بَكِّى حُضَيْرَ النَّدَى ... حُضَيْرَ الكتائب والمَجْلِسِ

ويومٍ شديدٍ أُوَارِ الحَدِيدِ ... تَقَطَّعُ منه عُرَى الأَنْفُسِ

صَلِيتَ به وعليكَ الحديـ ... ـدُ ما بينَ سَلْعٍ إلى الأَعْرُسِ[٧]

فأَوْدَى بنفسكَ يومُ الوغَى ... ونَقْبُ ثيابِك لم يَدْنَسِ

وفى هذا اليوم ، وفى يوم سبقه يقال له يوم « حاطب » يقول قيس بن الخطيم قصيدته[٨] :

أتعرف رَسْماً كاطِّرادِ المَذَاهِبِ ... لِعَمْرَةَ وَحْشاً غيرَ موقفِ راكبِ[٩]

. . . . . .

---

(١) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٩ .

(٢) بعاث من أموال بنى قريظة على مسيرة ميلين من الجنوب الشرقى للمدينة .

(٣) يقول ولفنسون إنها خمس سنوات ، (أى سنة ٦١٧ م) – تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٨ . وقد انتهى بى التحقيق إلى أن يوم بعاث كان قبل الهجرة بثلاث سنوات . لأنه كان بعد وفاة خديجة وأبى طالب وكانت وفاتهما قبل الهجرة بسنوات ثلاث . انظر سيرة ابن هشام ٢/٥٧ و ٦٧ – ٦٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ١/٤١٧ .

(٥) الأغانى ١٥/١٥٨ - الأدب العربى وتاريخه ص ٥٦ .

(٦) المرمس : القبر .

(٧) سلع والأعرس موضعان قرب المدينة .

(٨) ديوانه ص ١٠ .

(٩) اطراد المذاهب . تتابع الخط فى الجلود المذهبة – وعمرة : بنت رواحة .

أُجَالِدُ هُمْ يومَ الحديقةِ حاسِرًا كأَنَّ يدِى بالسيف مِخْراقُ لاعبِ
ويومَ بُعَاثٍ أَسْلَمَتْنا سيوفُنـا إلى نَسَبٍ فى جِذْمِ غَسّانَ ثاقِبِ

ويجيبه عبد الله بن رواحة بقوله[٢] :

أشاقَتْكَ ليلى فى الخَلِيط المُجانِبِ نعم ، فَرَشَاشُ الدمعِ فى الصدر غالِبِى

وفيه يقول قيس ويذكر يوم سُمَير[٣] :

رَدَّ الخَليطُ الجمالَ فانصرفوا مـاذا عليهم لو أَنهم وَقَفوا

فيرد عليه حسان بن ثابت بقصيدته[٤] :

ما بالُ عينِى دموعُها تَكِفُ من ذِكْر خَوْدٍ شَطَّتْ بها قَذَفُ

ويقول قيس بن الخطيم[٥] :

سَل المرءَ عبدَ الله إذْ فَرّ هل رأى كتائِبَنا فى الحرب كيف مِصَاعُها[٦]
تركْنا بُعَاثاً يومَ ذلك منهمُ وقُورَى على رَغْمٍ شِباعاً ضِباعُها[٧]

ويقول فى قصيدة أخرى[٨] :

وأَنَّا مَنَعْنا فى بُعاثٍ نساءَنا وما مَنَعَتْ مِلْمُخْزِياتِ نساءُها

وعاد أبو قيس بن الأسلت إلى امرأته بعد أن مكث فى الحرب أشهراً حتى شحب لونه وتغير ، ولما فتحت له الباب أنكرته ، فقال « أنا أبو قيس » قالت : والله ما عرفتك حتى تكلمت . فقال[٩] :

---

(١) جذم : أصل . ثاقب : مضىء ومشهور .
(٢) ديوان قيس ص ٣٦ .
(٣) ديوان قيس ص ١٦ وارجع ليوم سمير فى هذا الكتاب .
(٤) ديوانه رقم ٢١٦ وارجع ليوم سمير كذلك .
(٥) ص ٢٥ ديوان قيس .
(٦) المصاع : الضرب بالسيف .
(٧) قورى : موضع قرب المدينة .
(٨) ديوانه ص ٤ .
(٩) الأغانى ١٥/١٥٤ وما بعدها .

قالت – ولم تَقْصِدْ لِقِيلِ الخَنَا – مهلاً ، فقد أَبْلَغْتَ أَسْماعى[١]
أَنْكَرْتُهُ حينَ تَوَسَّمْتُهُ والحربُ غُولٌ ذاتُ أَوْجَاع
مَنْ يَذُق الحربَ يَجِدْ طَعمها مُرًّا ، وتَحْبِسْهُ بَجعْجَاعِ[٢]
قد حَصَّت البَيْضةُ رأْسِى فما أَطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجَاعِ[٣]

وقال الربيع بن أبى الحقيق يسخط على قريظة والنضير لقسوتهم على بنى قينقاع لانضمامهم إلى الخزرج :

سَئِمتُ وأَمْسَيتُ رَهْنَ الفِرا شِ من جُرْم قَومِى ومن مَغْرَمِ
ومن سَفَهِ الرأى بَعْدَ النُّهَى وعِيبَ الرشَادُ ولم يُفْهَمِ[٤]

ومن العجيب أن تلك النار الدائمة الشبوب لم تستطع أن تصرف الأوس عن أن يقع فيما بينهم نزاع داخلى، فقد قتل بنو خَطْمة[٥] عامر بن أمية الأوسى ، وكان شريفاً فى قومه . فانقسمت الأوس فرقتين ، إحداهما مع بنى عمرو بن عوف ، والأخرى مع بنى خطمة ، واقتتلوا مراراً حتى قتل منهم كثير ، فقال قيس بن الخطيم فى ذلك قصيدة مطلعها [٦] :

رَدَّ الخَليطُ الجِمالَ فانقَضَبا وقَطَّعوا من وِصالِكَ السَّبَبَا

أثر هذه الحروب

كان يوم بعاث آخر أيام الأوس والخزرج ، وقد أعاد التوازن بين القبيلتين المتنافستين ، لكن طول القتال أضعف المدينة عامة ، وأعاد لليهود شيئاً من مكانتهم بيثرب ، وحط من مكان الأزد ، حتى قال بعض المؤرخين : إنهم أصبحوا أجراء

(١) آلمنى خبرك حتى ما أريد سماعه .
(٢) الجعجاع : المكان الغليظ .
(٣) حصت : أزالت الشعر . البيضة : شبه الخوذة . تلبس فى الحرب . التهجاع : النومة الخفيفة .
(٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٩ .
(٥) بطن من الأوس .
(٦) ديوانه ص ٢٩ .

عند اليهود[١] . فترك ذلك فى نفوسهم أسىً مريراً . وأشاع بينهم قلقاً ملحًّا ، جعل يتزايد يوماً بعد يوم . وأدركوا جريرتهم بتطاحنهم . وفكروا فى عاقبة أمرهم ، وتطلعوا إلى زعيم يجمع شملهم . وإلى أمن شامل يظلهم ، فلما خرج نفر من الخزرج إلى مكة يبتغون الحج لقيهم الرسول وسألهم عن شأنهم . ودعاهم إلى الإسلام ، فعرفوا أنه النبى الذى توعدهم به اليهود . فآمنوا بدعوته وصدقوه حتى لا يسبقوهم إليه . وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى أن يجمعهم الله بك[٢] .

وهكذا لم تخل نقمة الحرب من نعمة . فألهبت القرائح الشاعرة . وأذكت جذوة الشعر ، كما هيّأت النفوس القلقة الثائرة لتلقى رسالة التوحيد ، والدخول فى دين الله أفواجاً .

الشعر بالمدينة

فأنت ترى أن حروب الأوس والخزرج . كانت تسايرها حرب الشعر بين المتخاصمين خطوة خطوة . وكانت معارك الشعراء لا تقل احتداماً ونشاطاً عن ميادين الحرب . حتى لتكاد تسمع منها صليل السيوف وترى التماع الأسنة . وكان لجماعة من شعراء اليهود صلة بشعراء النقائض أو مشاركة فيها وفى أيامها ، منهم أوس بن دُنَىّ القُرَظى ، والسموءل بن عاديا ، وأبو الزِّناد . وكعب بن الأشرف من بنى النَّضير . وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره فى حروب الأوس والخزرج . والربيع بن أبى الحُقيق من قُريظة[٣] . كما كان لهم مشاركة فى الحياة الشعرية عامة . وهذا هو الربيع يجيز على النابغة الذبيانى فيعجب به . ذكروا أن النابغة أشرف على سوق بنى قَيْنُقَاع . وللناس والصناع فيها ضجة عظيمة . فحاصت به ناقته ، فأنشأ يقول :

كادتْ تُهَالُ من الأَصوات راحلتى

ثم قال للربيع بن أبى الحقيق — وكان معه — أجز يا ربيع فقال :

والنَّفْرُ منها إذا ما أَوْجَسَتْ خُلُقُ

---

(١) مبروك نافع : تاريخ العرب ص ١٨٩ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/ ٧٠ .

(٣) الشايب : تاريخ النقائض ص ٦٥ و ٦٦ .

فقال النابغة : ما رأيت كاليوم قط . ثم قال :

لولا أُنَهْنِهُهَا بالسَّوط لاجتَذَبَتْ أَجِزْيا ربيع . فقال :

منى الزِّمامَ وإنى راكب لَبِقُ

فقال النابغة :

قد مَلَّتِ الحَبْسَ فى الآطامِ واشتَعَفَتْ أجز يا ربيع . فقال :

إلى مَناهِلِها لو أنها طَلَقُ

فقال النابغة : « أنت يا ربيع أشعر الناس »[١] .

وكان طبيعيًّا أن يذكو الشعر فى هذه البيئة ، فهذه هى الأرض التى تغذوه ، وتلك هى السماء التى تجوده . « وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يُغيرون ويُغار عليهم ، والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا[٢] » . ومن هنا كانت المدينة أشعر القرى العربية[٣] .

الدين بالمدينة

وكانت النصرانية قد علقت أصولها بنَجْران ، واليهودية شاعت فى اليمن والحجاز ، ولكن لم يتم لهما شىء من الهيمنة على العقلية العربية فى الشمال[٤] ، فإن بنى قَيْلَة كانوا عند نزولهم يثرب مشركين يعبدون الأوثان ، شأن الكثرة من العرب ، وكان معبودهم الأكبر مَنَاة ، وأهم معبد لها فى قُدَيْد بين مكة والمدينة[٥] ، وكان رمزها حجراً أسود ، وإليها يشير الشعر العربى ، فيقول حسان بن ثابت فى شأن قريش[٦] :

كانت قريشٌ بَيْضَةً فَتَفَلَّقَتْ فالمُخُّ خالصُهُ لعبد الدار

---

(١) الأغانى ٢١/٦٢ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٩٧ وما بعدها .
(٣) المرجع نفسه ص ٨٣ .
(٤) حتى : تاريخ العرب ص ١٥٢ .
(٥) بلوغ الأرب ٢/٢٠٢ .
(٦) ديوانه رقم ١٤٥ .

وَمَناةُ ربى خَصّهم بكرامةٍ حُجَّابُ بيتِ اللهِ ذى الأَستار

وكانوا يعظمون آلهة أخرى منها اللات ، ولكننا لا نعرف عن تدينهم هذا إلا النزر اليسير . وقيس بن الخطيم يعالج النزاع بين القبائل والعشائر فى شعر كثير ، ولكنه لا يشير إلى الدين إلا نادراً ، ولا تجد فى شعره ذكراً لتلك الآلهة ، وإنما يشير كثيراً إلى الله ، ويسميه الخالق ، ويثبت له القدرة على ما يشاء ، ويقسم به ، ويذكر مسجده الحرام ، وأيام منىً وما يحدث فيها من التعارف بين القبائل رجالهم ونسائهم[١] .

على أن وثنية العرب قد تضعضعت وفقدت مكانتها ، ولم يبق لها فاعلية فى إحياء نفوس الأمة المنهكة وإيقاظها ، وعجزت عن الاستجابة لتلك اليقظة الروحية التى عمرت بها بعض القلوب ، فظهرت فئة اعتنقت نزعة توحيدية غامضة[٢] ، ووجد إلى جانب الشعراء المختلطى الدين آخرون تأثروا بروح اليهودية والنصرانية ، هؤلاء هم الحنفاء ، والحنيف المستقيم ، ومن كان على دين إبراهيم . ومن كان صادق الميل إلى الإسلام[٣] . وقد أطال الأستاذ بول Buhl الكلام فى وصف حالهم ، وذكر تفاسير مختلفة لكلمة« حنيف ». أقربها إلى الصواب قوله[٤] : « إن بعض أشعار القرن الأول الهجرى تدل على أن الحنيف ينماز من القس النصرانى والحبر اليهودى ، ومن ذلك الشعر :

وصَهْباءَ جُرْجانِيّةٍ لم يَطُفْ بها حَنيفٌ ، ولم تَنْغَز بها ساعةً قِدْرُ
ولم يَشْهَد القَسُّ المُهَينِمُ[٥] نارها طُروقاً ، ولا صلَّى على طَبخِها حَبْرُ

وهذا يتفق مع قوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » .

وقد انصرف هؤلاء الحنفاء عن عبادة الأوثان والآلهة التى كانت مسماة إذ ذاك .

---

(١) ديوانه ص ١٧ و ١٨ و ٢٢ و ٢٨ و ٣٠ و ٣٨ .
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ١٥٢ .
(٣) القاموس المحيط مادة حنف .
(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة « حنيف » .
(٥) الهينمة : صوت كلام غير مفهوم .

ومالوا إلى طريق مستقيم ، وتقشفوا وأطالوا التأمل، ومنهم أبو الهيثم بن التَّيِّهَان الأوسى ، وأسعد بن زُرَارة الخزرجى ، وقد أعلنا التوحيد قبل أن يعرفا محمداً[١] ، ثم أسلما وبايعا فى العقبة الثانية[٢] ، ومنهم أبو قيس صِرْمَةُ بن أبى أنَس الخزرجى ، ترهّب ولبس المُسُوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وهمّ بالنَّصرانية ثم أمسك عنها وقال : أعبد رب إبراهيم . ثم أسلم وحسن إسلامه وهو شيخ كبير ، وكان قوّالاً بالحق ، مُعَظِّماً لله عز وجل فى جاهليته ، يقول أشعاراً فى ذلك حساناً[٣]. ومنهم أبو عامر عَبْدُ عمرو بن صَيفِىّ الأوسى وكان يسمى الراهب ، ترهب فى الجاهلية ولبس المُسُوح، ثم غلبت عليه شقوته ففر من الله ورسوله إلى أهل مكة، ثم لحق بالشام فتنصر[٤]. ومنهم أميّة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفى المتوفى سنة ٦٢٤ ، وزيد ابن عمرو بن نُفَيْل، ابن عم عمر بن الخطاب، وورَقَةُ بن نَوْفل، ابن عم السيدة خديجة[٥] .

« وكان أمية كثير العجائب ، يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء . وكان قد شام أهل الكتاب »[٦] .

وهكذا أثرت العقيدة الدينية اليهودية فى أهل المدينة وما حولها ، كما أثرت العقائد الدينية فى بعض بلاد العرب ، فظهر الحنفاء ، واستعدت الأذهان لتلقى رسالة إلهية جديدة وقبول الإسلام .

يقول ابن هشام: « ولم يكنْ حىٌّ من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر وقبل أن يذكر من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ، ومعهم فى بلادهم »[٧] .

ويقول ابن إسحاق فى حديثه عن اليهود والأوس والخزرج: « فكانوا إذا كان

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٣ قسم ثان ص ٢٢ و ١٣٩ .
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٩٨ و ١٠٠ .
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/١٥٦ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٠ . ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٥) تنصر ورقة بعد ذلك . ابن هشام : السيرة النبوية ١/٢٣٨ .
(٦) ابن سلام : طبقات الشعراء ٩٧ وما بعدها . شام : نظر .
(٧) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٣٠١ .

بينهم شيء قالوا – أى اليهود – لهم : إن نبيًّا مبعوث الآن قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم[١].

وقد أشار القرآن إلى هذا فى قوله عن اليهود: « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون[٢] على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

ويقول بروكلمان[٣] : « كان ينزل بالمدينة جماعة عظيمة العدد من اليهود، لا بد أنها قد هددت الوثنيين بقرب ظهور النبى المنتظر . وهذا التهديد بالنبى المنتظر جعل من مألوف تفكير أهل المدينة انتظار مبعوث إلهى ، فكان أول دافع إلى قبولهم الإسلام ما بثته فيهم ظروف مجتمعهم ، التى أعدت أفكارهم وجعلتها أسلس قياداً للآراء الدينية من أهل مكة المنغمسين فى ملاذ الحياة إلى حد بعيد » .

وفيما يرويه ابن إسحاق عن حسان بن ثابت دليل على ما كان لأولئك اليهود من أثر فى إشاعة الأفكار الدينية بيثرب؛ يقول حسان: « والله إنى لغلام يَفَعَة ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ماسمعت ، إذ سمعت يهوديًّا يصرخ بأعلى صوته على أطُمِه بيثرب : يا معشر يهود ، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ، مالك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به »[٤].

وليس من العدل أن نفترض أن بنى قيلة لم يحملوا معهم شيئاً من حضارة الجنوب وثقافته وتفكيره، مما كان معروفاً عند اليمن إذ ذاك ، ولكن يجب ألا ننسى أثر اليهود فى ثقافتهم وحياتهم العقلية ، فقد أشاعوا بينهم القراءة ، ونثروا فيهم طرفاً من معرفة أهل الكتاب . كما أعدوا نفوسهم إعداداً روحيًّا لتقبل دين جديد ، وانتظار نبى مرسل .

وكان الحجاز عامة فى القرن السادس الميلادى محاطاً بمؤثرات ثقافية، منبعثة من مصادر بيزنطية وآرامية وفارسية وحبشية ، وقد أتيح له بعلاقته بالغسانيين واللخميين واليمنيين أن يأخذ ما أخذ من هذه الثقافات الخارجية، على نحو ما تبين فى الفصل

---

(١) ابن هشام ٢/٧٠ .

(٢) يستفتحون : يستنصرون .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية . النسخة الإنجليزية ص ١٨ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ١/١٦٨ .

السابق ، ولكن ذلك لا يعنى أن الحجاز قد تأثر بمدنية الشمال — التى فاقت ما عنده مرتبة — تأثراً عميقاً قلب جوهر ثقافته الخاصة[١] . وكان لحضارة الغسانيين أثر أقوى وأبقى فى المدينة خاصة ، لقربها من الشام ، ولما بين أهلها وبين الغسانيين من وشائج القربى ودواعى التواصل ، ولم يفد الشعراء وحدهم من الرحلة إلى ديار الغساسنة ، فإن كثرة غالبة من أهل مكة والمدينة زاروا بلادهم تاجرين ، يقول أوليرى :

« وكانت العادة عند مولد النبى أن تجهز قافلتان كل سنة إلى بلاد الشام ، وتذكر السيرة أن النبى اشترك فى هذه الرحلات أكثر من مرة ، ويصف ابن هشام كيف ذهب النبى مرة إلى بُصْرى وهو فى الثانية عشرة من عمره ، ثم ذهب مرة أخرى وهو فى الخامسة والعشرين . وإنه لمن المستطاع أن نجزم بأنه فى القرن السابع الميلادى ذهب كل بالغ مكى إلى بُصْرى أو الحيرة مرة واحدة على الأقل »[٢] .

وكان الغسانيون أنفسهم يحرصون على صلة قومهم من الأوس والخزرج حتى بعد إسلامهم . وقد رأينا كيف أن هدايا جبلة بن الأيهم لم تنقطع عن حسان بعد انقطاعه عنهم[٣] . كما ذكروا أن كعب بن مالك الشاعر الخزرجى حين تخلف عن غزوة تبوك ، وقاطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون خمسين يوماً ، أقبل عليه وافد من الشام ، فدفع إليه كتاب ملك غسان فى سرقة من حرير ، وإذا فيه : « أما بعد . فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك » . فقال حين قرأها : « وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فىّ رجل من أهل الشرك » . وعمد إلى تنور فسجره بها[٤] .

المدينة والإسلام

انتهينا من تاريخ المدينة إلى حرب بعاث ، قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وكان الأوس قبل أن يخوضوا غمارها قد أرسلوا نفراً منهم إلى قريش ، يطلبون حلفهم على الخزرج ، فلقى الرسول هؤلاء النفر ، وذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ،

---

(١) حتى : تاريخ العرب ١/١٥٢ .
(٢) تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ص ١٨٦ — ١٨٧ O. leary
(٣) الأغانى ١٤/٦ .
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٤/١٧٩ .

فمال بعضهم إليه[١] . ثم لقى فى مواسم الحج التالية أقواماً آخرين من يثرب عند العقبة . فآمنوا به . وبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وعلى حرب الأحمر والأسود . وكانوا يحدثون قومهم عن النبى والإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار فى يثرب إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات ، إلا جماعة قليلة من الأوس[٢] . وهاجر الرسول إلى المدينة ، فازدحمت حوله القبائل والعشائر ، ترحب بمقدمه وترجو نزوله عندها .

مكة والمدينة إزاء الإسلام وشعراؤهما

وإن المرء ليتساءل عن السر فى وقوف أهل مكة وأهل المدينة من الرسول ودعوته على طرفى نقيض . أولئك يكذبونه ويبغضونه ويؤذونه ويطردونه . وهؤلاء يصدقونه ويحبونه ويفتدونه ويؤوونه ! وما هو إلا عناد قريش وجفاؤها واستكبار قادتها عن اتباع محمد . وهو من يرونه دونهم جاهاً ومالا . وكذلك كان قوم كل نبى أشد الناس عليه إنكاراً . وأبعدهم له مناهضة . ولا كرامة لنبى فى قومه . وخوفهم على منزلتهم بين العرب ، التى يستمدونها من البيت الحرام وسدانته أن تضيع ، إذا صار دين محمد إلى الشيوع والذيوع . وصار له فى العرب كافة قول مسموع ، وعلى تجارتهم الرابحة أن تعصف بها ريح الإسلام إذا ما أتى الإسلام على مكانتهم . مع ما كانوا عليه من أمن فيما بينهم . لا خلاف يفرق وحدتهم ، ولا حرب توهن عزيمتهم ، وتميل بهم أو ببعض منهم إلى مهادنة الرسول أو مناصرته . وفقد الأسباب المهيئة لتأثر نفوسهم بالأفكار الدينية التى كان يشيعها أهل الكتاب فى من حولهم ، لقلة احتكاكهم بهم . ورضاهم بدينهم . أما المدينة فقد نهكت أهلها الحرب . حتى تطلعوا إلى زعيم يخلصهم من شقائهم . وعلمهم اليهود أن نبيًّا مرسلا قد أظل زمانه ، وهددوهم بمحالفته عليهم . فهم يرقبون مشرق شمسه فيهم . ولا شك فى أنه كان فى أخلاق أهل يثرب من آثار الحضارة ورقة الطبع ما جعلهم أقرب اقتناعاً وأقل عناداً .

وليس غريباً أن نطيل القول حول المدينة . فقد كانت مبعث النهضة العربية ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٦٩ — ٧٠ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٧٠ — ٨٤ .

ومركز الدولة الإسلامية ، وعنها صدرت كل المؤثرات فى تاريخ هذه الأمة ، وفى حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية والعقلية والأدبية ، ترسم فيها سياستها ، وتضىء تعاليم دينها ، وتقام أسس حياتها ، وتنبعث منها جيوشها ، وتصدر عنها غارات شعرائها . كما كانت قبل الإسلام موطن تمدين وحضارة فى الجزيرة العربية ؛ وكان ليهودها فضل فى نشر الثقافة والمبادئ الروحية ، وإيجاد نهضة مادية وأدبية ، وكانت حروب الأوس والخزرج بها مدرسة الشعر فى زمانها . فإذا كانت قد تأثرت الحياة فيها بالإسلام، فقد أثرت هى أيضاً فى حياة المسلمين والإسلام .

نزل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة ، فوجد أمامه الأوس والخزرج مختلفين فألّف بين قلوبهم ، والمهاجرين والأنصار فى حاجة إلى استحداث رابطة فآخى بينهم ، واليهود على شيمتهم من العداوة والحقد والكيد والعمل على الفرقة بين الأوس والخزرج[1] فوادعهم ، وجعل همه نشر الدين وإقامة مبادئه الخلقية والاجتماعية ، والقضاء على شرور الجاهلية . وما كان ذلك ليتهيأ له حتى يرد كيد الكائدين ، ويؤمن حياة المسلمين ، ويناهض الشرك والمشركين ، فوجه جهود المسلمين إلى هذه الغاية ، ومن المدينة خرج المسلمون يقاتلون في سبيل الله منذ عامهم الأول ، فى غزوات متلاحقة ، أشهرها بدر وأحُد والخَنْدق وخَيْبر ومُؤْتة[2] وفتح مكة وحُنَيْن والطائف وتَبُوك[3] ، وكانت كل معركة من هذه المعارك امتحاناً لإيمان المسلمين ، وتربية لنفوسهم ، ودرساً فى الجهاد والاتحاد والفداء والصبر عند اللقاء ، والبذل فى سبيل الله ، والطاعة لرسوله ، والارتفاع عن المآرب الذاتية والقبلية ، إلى مثل عليا وأهداف عامة ، وتحقيق الخير للناس كافة .

وكانت تدور مع كل معركة من هذه المعارك معارك للشعراء ومناقضات ، يتقاول فيها الخصوم حول هذه المبادئ السامية ، والدولة الناشئة ، والدين الجديد ؛ لأن الدعوة كانت فى حاجة إلى من يذيعها ، ويذود عنها هجاتها ، فى أمة يبلغ فيها الكلام ما لا يبلغ الحسام ، فضلا عن أن نهضة الشعر قد صحبت منذ القدم المعارك والحروب ، وقامت فى ظلال الأسنة والسيوف . وقد ندب الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت لقيادة حملة الشعراء ، وكان

---

(١) كان بنو قريظة والنضير فى الجاهلية مع الأوس وبنو قينقاع مع الخزرج .
(٢) قرية فى الشام .
(٣) موضع بأرض الروم .

من رجالها معه عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك . يؤازرهم آخرون من المهاجرين والأنصار . أمثال طالب بن أبي طالب[١] وعلي بن أبي طالب[٢] . وخوّات ابن جُبَيْر الأنصاري[٣] . وكان للشواعر من المسلمات نصيب في هذه المعارك الشعرية. منهن هند بنت أُثَاثَة[٤] وصَفية بنت عبدالمطلب[٥] ونُعْم امرأة شَمَّاس ابن عثمان[٦] . وكان من شعراء قريش ومن تابعهم أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله ابن الزِّبَعْرى[٧] وعمرو بن العاص[٨] وضِرار بن الخطاب[٩] . وعباس بن مرداس[١٠] وأمية بن أبي الصَّلْت[١١] وكِنَانة بن عبد يَالِيل الثقفيان[١٢] والأعشى التميمي[١٣] وهُبَيْرة بن أبي وهب[١٤] والحارث بن هشام المخزوميان[١٥] ومن شواعرهم هند بنت عُتْبة[١٦] وصفية بنت مُسافر[١٧] وقُتَيْلة بنت الحارث[١٨] .

وكان لوفود العرب القادمة على الرسول بالمدينة خطباء وشعراء . يناقضهم حسان ويحاجّهم ويفاخرهم . ويبدو أن احتضان الرسول له وتقديمه إياه على الشعراء وإيثاره بالقول جعله أشد حماسة في مدافعتهم . وأبلغ تأثراً بالإسلام في منهجه .

آثار العصبية بالمدينة

قدمنا أن الدين حارب العصبية والحَمِيّة الجاهلية . وأن الرسول ألف بين الأوس

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٢٧ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٢٣٥ .
(٣) ابن هشام : السيرة ٣/٢١١ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٣/٤٣ و ٩٧ .
(٥) ابن هشام : السيرة ٣/١٧٦ .
(٦) ابن هشام : السيرة ٣/١٧٧ .
(٧) ابن هشام : السيرة ٣/١٤٣ — ١٤٨ و ٢٦٨ .
(٨) ابن هشام : السيرة ٣/١٥١ — ١٥٤ .
(٩) ابن هشام : السيرة ٣/٢٨ و ١٤٧ و ١٥٢ و ١٧٢ و ٢٦٦ .
(١٠) ابن هشام : السيرة ٣/٢١١ و ٢١٢ .
(١١) ابن هشام : السيرة ٣/٣١ .
(١٢) ابن هشام : السيرة ٤/١٢٣ .
(١٣) ابن هشام : السيرة ٣/١٧٥ .
(١٤) ابن هشام : السيرة ٣/١٣٦ ، ٢٨٠ .
(١٥) ابن هشام : السيرة ٣/١٩ ، ٢٩ .
(١٦) ابن هشام : السيرة ٣/٤٠ ، ٤٢ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٧٧ .
(١٧) ابن هشام : السيرة ٣/٤٢ .
(١٨) ابن هشام : السيرة ٢/٧٦ .

والخزرج ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، ووادع اليهود ، رجاء أن يعيش الناس فى ظل الإسلام والسلام إخواناً ، فإذا لم يكن قد بلغ من ذلك الغاية فقد بلغ منه مدى بعيداً ؛ إذ ليس من اليسير أن تأتى على مافى النفوس جملة بكلمة ، ولا أن تستأصل ضغائن قد تأصلت بين يوم وليلة ؛ لذلك بقيت آثار العصبية القديمة كامنة فى الصدور ، حتى إذا هاجتها الحادثات تطاولت للظهور ، ولكنها آثار هينة ، وما كان المتفائلون ليرجوا من هذه الجماعات الحديثة العهد بالإسلام ، والتى شبت وشابت فى أحضان الجاهلية خيراً مما انتهت إليه .

بين الأوس والخزرج

أما الأوس والخزرج فقد بايع منهم من بايع فى العقبة الأولى قبل أن تجف دماء يوم بُعاث ؛ فبعث الرسول معهم مصعب بن عُمَير ليقرئهم القرآن ؛ ويعلمهم الإسلام ، فكان يصلى بهم ، لأن بعضهم كره أن يؤمه بعض.[١] وكان اليهود تسوءهم ألفتهم ، ويعملون على إثارة الفتنة بينهم ، وقد جمع الأوس والخزرج مجلس يتحدثون فيه ، فمر بهم شَاسُ بن قيس — وهو شيخ يهودى — فغاظه ما رأى من اجتماعهم وصلاح ذات بينهم ، فدس عليهم فتى يهودياً ذكر يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ماقالوه فيه من الشعر ، فتكلم القوم وتفاخروا وتنازعوا وتداعَوْا للسلاح ، وخرجوا إلى الظاهرة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسعى إليهم فى أصحابه من المهاجرين حتى جاءهم ، وعاتبهم على دعائهم بدعوى الجاهلية ، وذكرهم نعمة الله عليهم ، فبكوا وعانق بعضهم بعضاً[٢] . وقد اتخذت تلك العصبية لوناً من المنافسة بينهما فى التقرب من النبى صلى الله عليه وسلم ، والسبق إلى خدمة الإسلام ، وكانا يتصاولان فى ذلك تصاول الفحلين ، فلما قتل الأوس كعب ابن الأشرف اليهودى فى عداوته للرسول ، قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلا علينا أبداً . وما زالوا حتى قتلوا يهودياً كابن الأشرف فى عداوته لله ورسوله ، هو سَلاَّم بن أبى الحُقَيق[٣] .

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢/٢٠٤ و ٢٠٥ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٢٨٦ .
(٣) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٣ .

وحينما قيل ما قيل من الإفك فآذى رسول الله، قام أُسَيْد بن حُضَيْر الأوسى، فقال : يارسول الله . إن يكن المفترون من الأوس نَكْفِكَهم . وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم ، فقام سعد ابن عُبَادة فقال : كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم ، أمَا والله ما قلت هذه المقالة إلا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ماقلت هذا ، وتساور[١] الناس حتى كاد يكون بينهم شر[٢]

بين المهاجرين والأنصار

وأما المهاجرون والأنصار فلم يكن بينهم من العداء القديم مثل ما كان بين الأوس والخزرج . وإن كانت حياتهم لم تخل أيضاً مما يكون بين أبناء القبيلة الواحدة من خلاف وتنافس. من ذلك حادث جَهْجَاه الغِفَارى، حين اقتتل على الماء مع سِنَان الجُهَنى حليف الخزرج ، فصاح سنان : يامعشر الأنصار ، وصاح جهجاه : يا معشر المهاجرين ، وقال عبد الله بن أبىّ عندئذ مقالة سوء[٣] . وما كان من تعريض حسان بن ثابت بالمهاجرين وقد رأى كثرة الوافدين منهم على المدينة مسلمين بقوله[٤] :

أمسى الجَلابيبُ قد عَزُّوا وقد كَثُروا وابنُ الفُرَيْعَة أمسى بَيْضَةَ البلد[٥]

وما كان من وَجْد الأنصار حين فرق الرسول غنائم حُنين فى قريش وقبائل العرب ولم يعطهم شيئاً ، حتى كثرت منهم القالة ، وقال حسان فى ذلك شعراً[٦] . ولما تخلف كعب بن مالك عن تبوك ، فأمر الرسول بمقاطعته ، ثم تاب الله عليه ، أسرع إليه الناس يبشرونه ويهنئونه ، ولم يقبل عليه من المهاجرين سوى طَلْحة ابن عبيد الله[٧] . وكان الرسول يلمح ذلك بفطنته ، ويعالجه بحكمته . قدم كعب ابن زهير على النبى مسلماً بعد غزوة الطائف ، فأنشده قصيدته المشهورة « بانت

---

(١) تساوروا : قام بعضهم إلى بعض .

(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٣٠٣ .

(٣) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٧ . الأغانى ٤/١٢ .

(٤) الجلابيب الغرباء ، وهو وصف غلب على قريش ؛ بيضة البلد : المراد بها هنا الدلالة على الانفراد والذلة .

(٥) ابن هشام : السيرة ٣/١٤٠ و ١٤٢ .

(٦) ابن هشام : السيرة ٤/١٨٠ .

(٧) ابن هشام : السيرة ٤/١٨٠ .

سعاد » وخص فيها المهاجرين بالمدح ، فغضبت لذلك الأنصار ، وقال له الرسول : « لولا ذكرت الأنصار بخير ، فإنهم لذلك أهل ! » . فقال يمدحهم[١] . ولما انتقل الرسول إلى ربه طمع فى الخلافة المهاجرون والأنصار ، ورأى كل منهم أنه أحق بها من غيره[٢] .

ولنا أن نميل إذاً إلى القول بأن هذه المنافسة بين المهاجرين والأنصار كانت وقوداً يذكى فى نفس حسان نزعته القديمة إلى سيادة قومه وتغنيه بها فى شعره[٣] .

دور اليهود فى الكيد للإسلام

وأما اليهود فلم ينفع معهم طب ، فقد كانت قلوبهم مريضة يأكلها الحقد ، وقد احتملوا جوار الأوس والخزرج فى الجاهلية لأنهم يقدرون عليهم ، أما الإسلام الزاحف ، وهذا الخطر الداهم يهدد مكانتهم ، ويغزو ديانتهم ، فلا قِبَل لهم به ، ولا سبيل لديهم إلا الكيد له ، فما فتروا عن إذاعة الأباطيل وإنكار التنزيل ، والتشكيك فى أمر الرسول وأمر الدين ، والتفريق بين المسلمين ، وتأليب الناس عليهم ، حتى إذا عاد الرسول من غزوة بدر وقد أعزه الله بالنصر ، وكان بنو قينقاع أول من نقض عهده ، حاصرهم حتى شفع فيهم عبد الله بن أبىّ ، فخلّى له عنهم[٤] ، ثم تآمر بنو النضير على قتل الرسول فى السنة الرابعة ، حين راح يستعينهم فى دية بعض القتلى ، فأجلاهم عن المدينة إلى خيبر[٥] . ولما حزب اليهود الأحزاب على المسلمين ، وحاربت قريظة معهم يوم الخندق ضربت أعناقهم[٦] . وقد استنكر كعب بن الأشرف من يهود طيئ قتل المسلمين للمشركين ببدر ، وخرج إلى مكة يبكى أصحاب القَلِيب ويحرض على الرسول ، ويقول فى ذلك الشعر[٧] ، ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين ، فأمر النبى به فقتل[٨] ، وقتل كذلك سلام بن أبى

---

(١) ابن هشام : السيرة ٤/١٥٧ و ١٥٨ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٤/٣٠٦ .
(٣) انظر تاريخ الشعر السياسى ص ٣٩ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٣/٥٠ و ٥٢ .
(٥) ابن هشام : السيرة ٢/٢٠٠ — ٢٠١ .
(٦) ابن هشام : السيرة ٣/٢٤٦ — ٢٥٢ .
(٧) ابن هشام : السيرة ٣/٥٥ .
(٨) ابن هشام : السيرة ٣/٥٨ — ٦٠ .

الحقيق بخيبر [١] .

ولم يكن غدر اليهود وما حل بهم موضع الاهتمام والبحث ؛ ولكن حياتهم ومنزلتهم ، وما ثار حول ما أصابهم من مقاولة ومناقضة وخصومة بين الشعراء هى بيت القصيد .

اشترك فى معركة الشعر حول اليهود والمسلمين شعراء من الجانبين ، وانضم إلى اليهود شعراء من العرب ، وكان شعراء الأنصار حسان وكعب بن مالك وابن رَواحة وَخوّات بن جُبَيْر [٢] وميمونة بنت عبدالله [٣] . وكان شعراء اليهود كعب بن الأشرف [٤] وسِمَاك [٥] وجَبَل بن جَوّال الثعلبى [٦] ، ومعهم عباس بن مِرْداس السُّلَمى [٧] وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب [٨] .

هذه المعركة الواسعة تدل على ما كان لليهود من مكانة بين العرب ، وتشير إلى المستوى المدنى والاقتصادى الذى بلغوه ، وإلى ترفهم وثرائهم ، وتؤيد ما قلناه من قبل هذا [٩] ، كما تدل على تشبث المسلمين بدينهم ورسولهم [١٠] .

المدينة فى عصر الراشدين

وكانت المدينة فى عصر الراشدين محط رحال العلماء ، ومركز الحركة العلمية ، ففيها أكابر الصحابة الذين عاشروا الرسول وتفقهوا عليه ، وإليها هاجر أشهر من أسلم من أهل مكة بعد هجرة الرسول ، وكانت مقصد من يريد الإسلام أيام النبى ، وكثيراً ما أقام بعضهم إلى جواره ، وكانت فى عهد الفتوح الكبيرة مورداً للأسرى ، يؤتى بهم إليها ثم يوزعون منها ، وكان كثير من هؤلاء الأسرى من الطبقات الممتازة فى أقوامهم ، لهم معارف عصرهم ، وفنون أممهم . ولذلك كانت مدرسة المدينة

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٢٨٦ وما بعدها .
(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٢١١ .
(٣) ابن هشام : السيرة ٣/٥٧ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٣/٥٥ و ٥٧ .
(٥) ابن هشام : السيرة ٣/٢١٠ .
(٦) ابن هشام : السيرة ٣/٢٥٢ و ٢٨٥ .
(٧) ابن هشام : السيرة ٣/٢١١ .
(٨) ابن هشام : السيرة ٣/٢٨٥ .
(٩) انظر ص ٩٠ وما بعدها من هذا الكتاب .
(١٠) انظر تاريخ النقائض فى الشعر العربى ص ١٣٥ .

أكثر علماً وأوفر شهرة[١] .

وكان فيها إلى جانب حياة الزهد والورع والتقوى والفقه والتفسير والحديث حياة أخرى كانت تسود الحجاز ، هى حياة المرح والطرب . واللهو واللعب ، وقد امتلأت مكة والمدينة وضواحيهما بالمغنين والمغنيات ، واجتمع منهم فى الحجاز عشرات[٢] ، وكان خير الجوارى من نصيب سادة الحجاز ؛ إذ كانت الدولة دولتهم ، وكان منهن رفيعات النسب ، الحاليات بالفن الرفيع والأدب . فنقلن إلى الحجاز ما يعرفن ، وصبغنه بصبغته . ويظهر أن ظرف أهل الحجاز ورقة طبعهم ، واحتفاءهم بالطرب وميلهم للهو قد جعله تربة صالحة لنماء هذا الغرس ، فكان له به شهرة لم تكن للشام ولا للعراق ؛ يقول الإمام مالك بن أنس ، وقد نشأ بالمدينة : « نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لى أمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء ، واطلب الفقه ، فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى عز وجل ما ترى[٣] .

ولا شك فى أنه قد كان لهذا اللون من الحياة أثر كبير فى الشعر والأدب .

وهكذا تعاونت الأسباب المختلفة على تهيئة البيئة التى أثرت فى نشأة حسان وحياته ، فأثر اليهود بالمدينة ، ونسب قومه فى اليمن ، وسيادة قبيلته بيثرب ، وحروب الأوس والخزرج ، وقرابته للغساسنة ، ورحلته إليهم وإلى المناذرة وإلى عكاظ مجمع الشعراء ، والأصداء المختلفة التى كانت تدوّى فى الحجاز عقلية ودينية ومادية ، والتى كانت تنبعث — على ما سلف — من مراكز بيزنطية وشامية وفارسية وحبشية ، سالكة سبيلها خلال مسالك غسانية أو لخمية أو يمنية ؛ فى القرن السابق لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإسلامه ومكانته من الرسول ، وما كانت عليه المدينة فى الإسلام . كل واحد من هذه يفسر لنا جانباً من جوانب حياة حسان . ويجلو لنا ناحية من نواحى شعره .

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .

(٢) الأغانى ٧/١٢٨ وما بعدها .

(٣) الأغانى ٤/٣٩ .